أعلام الإسلام
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى
(٥)

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

السلطان صلاح الدين

لمحات من حياته وصور من مآثره

مركز السيرة والسنة

القاهرة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أعلام الإسلام
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى
(٥)

السلطان صلاح الدين

لمحات من حياته وصور من مآثره

رجب عبدالمنصف
أمل خضيرى
سعاد عبدالستار

القاهرة
ربيع الآخر ١٤٢٥هـ - يونيه ٢٠٠٤م

يشرف على إصدارها

الدكتور / **محمود حمدى زقزوق**

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور / **عبد الصبور مرزوق**

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

على سبيل التقديم

أ . د . عبد الصبور مرزوق
الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) وبعد .،

فإن الحديث عن صلاح الدين مما تشرئب إليه الأعناق ، وتصغي إليه الأسماع ، وتستجاش به الآمال .

ولا غرو في هذا ، فإن أعماله ومآثره إنما هي عزمات الصديقين الذين يأتون على فترة من الزمن ، فيعيدون إليه اتزانه ، ويصححون له ما اعوج منه . وهكذا كان صلاح الدين .

لا أريد الاسترسال في بيان مناقب وشمائل وأعمال هذا البطل المغوار ، فقد تكفل بكل ذلك باحثونا في هذه الدراسة الواعدة التي أتاحت لنا العثور على شذرات من التراث الأدبي الرفيع ، يكفكف من آلام الوضع الراهن ، ويبعث فينا آمال القدرة على التغيير متى أحسنا العمل ووعينا الدرس .

وأعني بذلك ما ذيلت به هذه الدراسة من ملاحق . على أن الشيء الذي أريد الوقوف عنده في هذه العجالة هو الامتزاج التام بين

العقيدة والقيادة ، حيث التزم صلاح الدين الإسلام فى كل مـــا يـــأتى ويذر ، لا يصدر إلا عنه ، ولا يتصرف إلا علـــى وفقـــه ، وعلـــى ضوئه .

ونستدعى هنا مقارنة عقدها رسول أحد الخصوم العرب الـــذى كثيرًا ما نازعوا صلاح الدين ، وأعنى به سيف الدين غازى وكـــان معه عشرون ألفًا يقاتل بهم صلاح الدين وجنوده الستة آلاف أو هـــم فوق ذلك بقليل .

يقول هذا الرسول إنه (رأى صلاح الدين فى خيمـــة صغـــيرة على بساط لطيف ، وتحته سجادة ، وبين يديـــه مصحـــف ، وهـــو مستقبل القبلة ، وإلى جانبه زرديته وسيفه وقوسه وتركاشه (جعبـــة) معلق فى عمود الخيمة) .

ثم يسترسل الرسول الشاهد فيقول (فلما رأيته وقع فى خـــاطرى أنه المنصور ، لأنى فارقت سيف الدين والأمراء وهم على طنـــافس الحرير ، والخمور تراق ، والطبول تعمل ، وليس فى خيامهم خيمـــة إلا وفيها أنواع المحرمات ، فأديت الرسالة ، وجـــاء وقـــت الظـــهر فضج العساكر بصوت الآذان ، وفى كل خيمة إمام) .

تلك بإيجاز هى أخلاق صلاح الدين ، وهى سر انتصاره وخلوده على مر التاريخ .

مقدمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

(فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العـــالمين . ولــه الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) ، وصلـوات الله وسلامه على سيد الأولين والآخرين وعلى من سار على دربه إلـــى يوم الدين .

وبعــد ،

فإن الحديث عن صلاح الدين ليس ترفًا فكريا ، كما أنــــه ليـــس اجترارًا لماضى يشتاق إليه المرء ويحلم ، عله ينسى به واقعًا أليمًـــا يعايشه أو يستعلى على حاضر مخزى لأمتنـــا ، وإنمـــا هـــو دروس وعبر ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ليست انتصارات صــــلاح الدين وإنجازاته العسكرية هى مصدر خلود صـــلاح الديـــن والـــذى حظى بما لم يحظ به أحد ــ حاشا الخلفاء الراشدين ــ .

وإنما جاءه الخلود من أمر آخر ، من إقامة العدل الـــذى قـــامت عليه السماوات والأرض ، من هضم النفس ، ومن نكران الـــــذات ، ومن الاستعلاء على شهوات النفس .

ومن هنا جاءت هذه الدراسة ــ الوجيزة بحكم طبيعـــة السلسـلة التى تصدر فى إطارها ــ مشتملة على فصلين :

الأول : يعنى بالنشأة والمنزلة والصفات المتعلقة بمترجمنا .

أما الثانى : فكان لأهم مآثره سواء فى قضائــــه علـــى الدولـــة

الفاطمية أو فى مقاومته للغزاة الصليبيين أو فى تحريره لبيت المقدس .

ثم شفعنا ذلك بعدة ملاحق كان القصد منها بث الثقة فى نفوس اعتراها اليأس ، وغلب عليها القنوط ، وخيم عليها القلق ، فما نحن فيه ليس بأول كبوة لنا وإنه قد سبق لنا أن تقلبنا على انكسارات وهزائم عديدة ، خرجنا منها أصلب عوداً وأشد فراسا وأقوى شكيمة ، والتاريخ خير شاهد ، وما يعتمل فى نفوس القوم من رغبة مستميتة فى أن يظل المارد حبيسًا فى القمقم ، حريصين فى الوقت ذاته على تغير معالم المنطقة بمزروعات خبيثة هنا وهناك تنهك الجسد الواحد وتستنزفه فى معارك جانبية ؛ لأوضح دليل على استعصاء أمتنا على الفناء ، وإنه لابد لها من أن تسترد عافيتها وتستعيد مجدها ، شريطة أن تنجب ـ وهى الولاّدة ـ لنا من هم على شاكلة صلاح الدين : **﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾** وعندئذ **﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾** .

ولا يفوتنى فى النهاية أن أشكر الباحثتين الجادتين أمل محمد خضيرى ، وسعاد عبد الستار على ما قامتا به من جهد طيب فى تدعيم هذا العمل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

رجب عبد المنصف

الفصل الأول

صلاح الدين : لمحات من الحياة والنشأة

ويتكون من المباحث التالية :

١ ــ مصادر سيرة صلاح الدين .

٢ ــ عصر صلاح الدين .

٣ ــ نشأة صلاح الدين وصفاته .

٤ ــ صلاح الدين فى رؤى المؤرخين المسلمين .

٥ ــ شمائل صلاح الدين فى مرآة الشعراء .

٦ــ صلاح الدين ومكانته فى الأدب الغربى .

المبحث الأول

مصادر سيرة صلاح الدين

حظى صلاح الدين بمجموعة من المؤرخيـن الثقـات يدونـون سيرته ويسجلون معاركه فى وقتها وإبانها ثم تبعتهم مجموعة أخـرى قريبة العهد منه تفصل لنا ما أجملته المصادر الأولى ، وأهـم هـذه المصادر هى :

١ ـ النوادر السلطانية لبهاء الدين ابن شداد :

وقد عرف صلاح الدين ، ابن شداد فى الفترة الأخيرة من حياتـه وتوثقت بينهما العلاقة لما عرف عنه من علم ودماثة خلـق فـالتحق بخدمته ، وولاه قضاء العسكر فانتهز الفرصة وبدأ يسجل لنا أحـداث هذه الفترة (الخمس سنوات الأخيرة من حياة صلاح الدين) مقدمًا ذكر شمائله وما تميز به من مناقب .

ويمدنا الكتاب بصورة وافية من تعليقات صلاح الدين وآرائـه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد ما أورده ابن شـداد خاصًـا بصلاح الدين يقوم على الموضوعية وذلك عندما نقارنه بما وصـل إلينا من كتابات ابن أبى طيئ وهو مؤرخ شيعى لن يحـابى صـلاح الدين الذى قضى على دولته . ويلاحظ أن أسلوب الكتاب من قبيـل أسلوب السهل الممتنع فهو لا يعمـد إلـى السـجع ولا يكـثر مـن المحسنات بصورة عامة .

٢ ــ الفتح القسى فى الفتح القدسى :

وهو للعماد الأصفهانى كاتب صلاح الدين ، وقد سجل فيه ما قام به صلاح الدين من جهاد وحروب فضـــلاً عــن تســجيله لمناقبــه وسجاياه . كما يشتمل كذلك على الكتب والرسائل التى بعثها السلطان إلى الخليفة ببغداد وإلى سائر الملوك والسلاطين المسلمين لاستنفارهم إلى الجهاد وهو أحد شهود الفترة التى يؤرخ لها ، لا ينقـــل إلا مــا شاهده ووقف عليه ، ساعده على ذلك توليه لديوان الإنشاء .

أما عن أسلوبه فقد كان نقطة الضعف فى كتاباته إذ التزم السجع وأكثر من المحسنات البديعية حتى اختفى المعنى وشحب الأمر الــذى جعل استخلاص الحقائق التاريخية أمرًا يحتاج إلى جهد كبير .

وبجانب كتابه الفتح القسى ، وضع عدداً من الكتب الأخرى يأتى على رأسها البرق الشامى الذى يأتى فى سبع مجلدات ، وقد اختصره البندارى ، كما له خطفة البارق وعطفة الشارق ، فضلاً عن خريـــدة القصر وجريدة العصر ، وكلها تدور حول صلاح الدين وأعمالــــه ، باستثناء الأخير فهو عام .

٣ ــ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب :

تأليف جمال الدين محمد بن واصل ، وهو حديــث العــهد مــن صلاح الدين إذ ولد عام ٦٠٤هــ ، وتوفى عام ٦٩٧هــ .

وقد أرخ فى كتابه هذا للدولة الأيوبية منذ بدايتها حتى نهايتها فى تفصيل واف وتحقيق شامل دقيق ، وقد طبع الكتاب عام ١٩٥٧م .

ويعد هذا الكتاب من أوسع المصادر الخاصة بموضوعـــه كمـــا يعتبر مع النوادر السلطانية المرجع لكل من أتى بعده .

٤ ــ الروضتين : شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل المقدسى ، وهو أيضًا من المعاصرين لصلاح الدين فقد ولد عـــام ٥٩٩هـــــ ، وتوفى عام ٦٦٥هـــ .

وإذا كانت الكتب السابقة خاصة بصلاح الدين وحده ، فإن هـــذا الكتاب يشتمل على أخبار دولتى نور الدين وصلاح الدين .

كما أن فى عنوانه (الروضتين) ما يومئ إلى مكانة نور الديـــن وصلاح الدين بالنسبة لمن سبقهما من أمراء ضعاف وملوك محدودى الهمة .

وقد قرئ الكتاب فى الجامع الأموى قريبًا من البطلين ، وقد طبع الكتاب عدة طبعات .

كما يمتاز الكتاب بمادته الأدبية إذ هو سجل حافل بالقصائد التـــى مدح الشعراء بها صلاح الدين .

أيضًا من المصادر التى اعتنت بهذه الفترة :

٥ ــ بغية الطلب فى تاريخ حلب لكمال الدين ابن العديم .

٦ ــ غاية المطلوب فى تاريخ بنى أيوب .

وهو لمؤلف مجهول ، كما أن له مختصرًا بعنوان (نزهة الناظر وراحة الخاطر) وصاحبه مجهول أيضًا .

٧ ــ شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب . لقاضى القضاة عز الدين أبو البركات أحمد بن إبراهيم بن نصر الله العسقلانى .

٨ ــ التاريخ المظفرى . لابن أبى الدم .

٩ ــ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى .

أما المصادر الحديثة فأهمها :

١ ــ الحروب الصليبية . د . سعيد عاشور .

٢ ــ الناصر صلاح الدين . د . سعيد عاشور .

٣ ــ تاريخ الحروب الصليبية . د . حسن حبشى .

٤ ــ صلاح الدين . د . عبد المنعم ماجد .

٥ ــ السلطان صلاح الدين . د . رجب البيومى .

وغير ذلك من مصادر .

المبحث الثانى

عصر صلاح الدين *

من سنن الله فى الوجود الإنسانى التعاقب والتداول : ﴿ **يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى** ﴾ (1).

وهو قانون ينطبق على الأمم انطباقه على الأفراد : ﴿ **ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون** ﴾ (2).

وهو كما ينطبق على الوجود والعدم ينطبق كذلك على القوة والضعف ، الازدهار والانحطاط : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾(3).

وعندما يتطرق الأمر إلى عصر صلاح الدين فإننا لا نملك إلا أن نردد مع القائل : ما أشبه الليلة بالبارحة !.

فمنطقتنا العربية فى ذاك الوقت كانت مقسمة بين خلافة إسمية ، لا تملك ضرا ولا نفعا ودويلات هزيلة وكيانات متخاذلة ، وليت

---

* انظر فى ذلك الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة ، ومفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل ، والنجوم الزاهرة لابن تغربردى ، والسلوك للمقريزى ، ومن الدراسات الحديثة ، الحروب الصليبية د . سعيد عاشور ، تاريخ الحروب الصليبية د. حسن حبشى، الحياة الأدبية د . أحمد بدوى ، وكذلك الناصر صلاح الدين د . سعيد عاشور .

(1) الروم : ١٩.

(2) المؤمنون : ٤٣ .

(3) آل عمران : ١٤٠.

الأمر اقتصر على هذا التجزؤ والتفتيت ، وإنما كان الأمر أشد من ذلك وأنكى فالأسرة الواحدة تتنازع فيما بينها وتتعدد زعاماتها بتعدد أفرادها ، ويقع التطاحن بين الأخ وأخيه ، والابن وأبيه ، والعم وأبناء أخيه وهو ما يظهر بصورة واضحة لدى أبناء السلطان السلجوقي ملكشاه فضلا عن سائر الأتابكة ، ومن هنا لم تجد الحملة الصليبية الأولى ٤٩١هـ-١٠٩٧م مقاومة منظمة توقف اندفاعها أو تعرقل سيرها وهو الأمر الذى يصوره لنا المؤرخ البريطانى (مونتجمرى وات) بقوله : إنه فى نهاية القرن الحادى عشر لم يكن هناك حاكم مسلم قوى واحد، فى المناطق التى هاجمها الصليبيون ، بل كان هناك عدد من الحكام المحليين الصغار الذين أنفقوا الشطر الأول من وقتهم وطاقتهم فى قتال جيرانهم، وقد جعل هذا من المستحيل عليهم أن يتحدوا ضد الغزاة) [١].

أما بالنسبة إلى الفاطميين فكان الأمر أشد وأقرب إلى الخيانة ، إن لم تكن هى ذاتها ، وهو ما جعل ابن تغربردى يتعجب من عدم مشاركة الفاطميين فى المعركة (ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر ، وما أدرى ما كان السبب فى عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال) [٢].

---

(١) ٨٠٠ عام على حطين صلاح الدين ط . درا الشروق ١٩٨٧.

(٢) النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٤٧ .

غير أن ابن الأثير كان أكثر جرأة من ابن تغريبردى فذكر أنــــه يقال : (إن أصحاب مصر مــن العلويين لمــا رأوا قــوة الدولــة السلجوقية ، وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام حتى غزة . . خـافوا فأرسلوا إلى الإفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوها) (١).

ونتيجة لهذا وذاك نجح الصليبيون فى تأسيس أربع إمارات هى :

١ــ إمارة الرها ١٠٩٨م .

٢ــ إمارة أنطاكية ١٠٩٨م .

٣ــ مملكة بيت المقدس ١٠٩٩م .

٤ــ إمارة طرابلس ١٠٩٩م .

هكذا كان الوضع قبل أربعين عاما من ميلاد صــــلاح الديــن ، حيث أطلت الوحشية فى أبشع صورها ورأينــا الهمجيــة المتذرعــة بالمسيح عليه السلام تحت إمرة باباوات الكنيسة الذين دعوا أتباعـــهم عام ١٠٩٥م فى مدينة كلير مونـــت الفرنســية (لتوحيــد الجــهود لاستخلاص الأراضــى المقدســة مــن المســلمين) (٢). مقــابل أن (يرعاهم الله ويبارك جهودهم ويغفر ذنوبهم) (٣).

---

(١) الكامل فى حوادث سنة ٤٩١هـ ، وانظر كذلك الحروب الصليبية لسعيد عاشورج ١ص ١٨٦. وانظر أيضًا الحروب الصليبية (المقدمات السياسية) د . عليه الجنزورى ص ٢٧٨.

(٢) انظر الحركة الصليبية لسعيد عاشور ج١ ص ١٠٥ .

(٣) نفسه .

الأمر الذى دعا مكسيموس مونروند أن يعلق على فظاعة هـــذه الحروب بقوله : (إن أعمالهم هذه هدمت شريعة الحكم والوداعة فـى تعاليم الإنجيل المقدس .. لقد كنا نتمنى أن نغسل بدموعنا هــذا الــدم الذى أغرق به الصليبيون أراضى المدينة المقدسة) [١].

ويقول ويلز مصوراً المجازر التى ارتكبـــت باســم المســيح : (حدثت ببيت المقدس مذبحة رهيبة ، وكان دم المقهورين يجرى فـى الشوارع ، حتى لقد كان الفرسان يصيبهم رشاش الدم وهم راكبـون ، وعندما أرخى الليل سدوله جاء الصليبيون وهم يبكون من فرط الفرح وخاضوا فى الدماء التى كانت تسيل كالخمر فـــى معصـــرة العنــب واتجهوا إلى الناووس ورفعوا أيديهم المضرجة بالدمـــاء يصلـــون لله شكرا) [٢].

ولا نريد الاسترسال هنا فى وصف ما ارتكب فى هذه الحــروب فقد عرفه القاصى والدانى [٣].

---

(١) انظر الحروب الصليبية المقدمات السياسية د . عليه الجنزورى .

(٢) انظر الحروب الصليبية د . أحمد شلبى ٢٢ .

(٣) انظر فى ذلك مدونات التاريخ الإسلامية.

صلاح الدين وتباشير الفجر

فى الليلة التى ولد فيها صلاح الدين بزغ مجد آل زنكى وبدأ عماد الدين زنكى فى تأسيس إمارة تغير على الصليبيين وتستنقذ منهم البلاد وكان أهمها مدينة الرها عام ٥٣٩هـ وفى نفس الوقت اتجه لتوحيد الكيانات العربية قدر الإمكان ، ليلتحق به نجم الدين وشقيقه أسد الدين شيركوه ، حتى إذا ما اغتالته يد أثيمة خائنة خلفه ولده نور الدين الذى سار على الدرب وانتهج الخطة ذاتها ، ليشب صلاح الدين . وقد عمل تحت قيادته فى تولى شحنة دمشق فحفظ النظام والأمن وليلتحق بعد ذلك بعمه أسد الدين شيركوه فى حملاته لفتح مصر ، وفى مصر تتفتق مواهبه وتشحذ عزائمه ويقضى على الدولة الفاطمية التى كانت من الأسباب الأساسية لتمكين الصليبيين من احتلال بيت المقدس .

ثم يحل صلاح الدين محل سلفه السلطان العادل نور الدين فى تولى أزمّة الأمور عندما أتاه الأجل المحتوم . ويحل محل نور الدين عندما يأتيه الأجل وعلى يديه يندحر الصليبيون ويسترد بيت المقدس وتبوء الحملة الصليبية الثانية والثالثة بالفشل وتجر ذيل الخزى والخسران . وهو ما سنفصله فى الصفحات التالية .

أسرة صلاح الدين الأيوبى

ينتمى الناصر صلاح الدين لأسرة كريمة تعد من أوسط الأكراد نسبًا وعشيرة ، ترجع فى أصولها إلى قرية تعرف بـ (دوين) [(١)].

وإن كانت قد ضربت فى عرض البلاد وطولها . فأبوه نجم الدين ولد بشبختان وربى فى الموصل كما ولد صلاح الدين فى تكريت .

وقد تميزت هذه الأسرة بصفات النجدة والشجاعة ناهيك عن الشغف بالجهاد والهيام به .

وأول أعمدة هذه الأسرة هو :

نجم الدين أيوب والد مترجمنا والذى امتاز بحسن السياسة والكياسة ، وقد عمل مع صاحب شرطة بغداد مجاهد الدين بن بهروز [(٢)] ، ثم ولاه السلطان محمد بن ملكشاه قلعة تكريت ، وفيها حسنت إدارته فقام كما يقول أبو شامة فى ولايتها (أحسن قيام

(١) انظر النوادر السلطانية لابن شداد ص ٢٣ تحقيق محمد صبح ، وكذلك مفرج الكروب لابن واصل ٣/١ وما بعدها .

وانظر أيضًا الروضتين : ٤٠٣/١ ، وانظر كذلك وفيات الأعيان ٧ / ١٤١ .

(٢) الروضتين ٤٠٤/١.

وضبطها أكرم ضبط وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطرق وأهل العبث حتى عمرت أرضها وحسن حال أهلها وأمنت سبلها) (١) .

وقد كان وراء هذا النجاح عقل وسداد وشهامة يتوج ذلك كله تمسكه بالشرع الحنيف؛ فذللت له الصعاب وهو ما يظهر في قول أبي شامة (وكان نجم الدين عظيمًا في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة) (٢).

وكان من صور مروءته ونجدته والتي ورثها عنه بعد ذلك ابنه الناصر أن مد يد العون لعماد الدين زنكي عندما انهزم عند أسوار ولايته فأحسن إليه وأنقذه من الأسر أو القتل (٣).

فحفظ له زنكي هذه اليد وأبدله بها خيرا عندما دالت ولايته فخرج وأخوه أسد الدين شيركوه من تكريت ومعهما صلاح الدين الذي ولد في تلك الليلة (٤). فتوجهوا صوب زنكي الذي أكرم وفادتهم وبادلهم إحسانا بإحسان وولى نجم الدين بعلبك وأقام بها إلى أن اضطر للتنازل عنها لصاحب دمشق مقابل تمكينه من بعض قرى

(١) الروضتين : ٢/٢٥٢.

(٢) الروضتين ١ / ٤٠٤.

(٣) النوادر السلطانية ص ١٥ ، وانظر أيضًا وفيات الأعيان ١٤٤/٧ .

(٤) انظر المصادر السابقة .

دمشق عندما اشتد الحصار على بعلبك ولم ينجده نور الدين ، ثم عاد بعد ذلك إلى نور الدين ، وسلم إليه دمشق عندما خشى أن يسلمها صاحبها إلى الصليبيين [1]. وقد أقره نور الدين بعد ذلك على دمشق فآل إليه وإلى ولده النظر فى أمورها .

واستمر نجم الدين مقربا من السلطان نور الدين محتفيا به الحفاوة كلها فكان لا يجلس عنده أحد إلا بعد أن يأمره بالجلوس ما عدا نجم الدين . ومن الدلائل على علو مكانته قيام السلطان بتوديعه عند مغادرته الشام متوجها إلى مصر وبسط له سلطان الحماية عندما شاغل الصليبيين حتى لا ينتبهوا لخروجه .

وقد ظل نجم الدين حتى آخر حياته وفيا لصاحبه مقرا بحقه حتى أنه لما رأى بعض ذريته ينالون من نور الدين ويزينون لابنه صلاح الدين بالخروج عليه ومنابذته ، أنكر عليهم وسفه رأيهم [2].

---

(١) انظر الروضتين ١ / ٣١٨ ، ٤٠٥ ، والنجوم الزاهره ٥ / ٥ ، ومفرج الكروب ١ / ٩ وما بعدها .

(٢)انظر مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لجمال الدين بن واصل ٢٣٢/١ .

أسد الدين شيركوه :

أما ثانى أعمدة هذه الأسرة فهو أسد الدين شيركوه شـــقيق نجـــم الدين وعضده وساعده الأيمن وإن تميز كل منهما بصفة غلبت عليه.

فإن كان المرجع فى الرأى والمعول عليه فى المشورة هو نجـــم الدين فإن أخاه هو المقدم عند القتال المؤمل للظفر ، وقـــد بيـــن لنـــا أبو شامة هذا المعنى فقال :

(وكان نور الدين قد تيمن بأسد الدين وتبرك بميمون نقيبته لأنـــه لم يرسله فى أمر إلا نجح ولم يولجه فى مضيق إلا انفتح) [(1)].

فجعله المقدم فى جيشه الممهد لملكه وأغدق عليه من بحبوحـــة العيش ورفاهيته ما جعله طوع أمره ورهن إشارته .

شيركوه فى مصر :

من الآمال التى جاشت بنور الدين ضم مصر إلى الدولة النوريـــة والاستعانة بجندها فى مواجهة الصليبيين .

وقد واتت نور الدين الفرصة عندما ضعفـــت الدولـــة الفاطميـــة وأصابها التفكك وعبث بها الحكام والوزراء المرة تلو المرة حتى قـــدم

---

(1) الروضتين ٢/ ٨٧ ، وانظر أيضا ٣٧٥ ، ٤٠٥ وغيرهما من المواضع التى يمتدح فيها أسد الدين.

أسد الدين بجيشه ثلاث مرات إلى مصر لمساعدة الوزير شاور على استعادة وزارته فى الأولى واستجابة للخليفة العاضد عندما استصرخه وبعث إليه بشعور نسائه [1].

ومع تعدد بعوث نور الدين ونجداته إلى مصر فإنه لم يستقر الأمر لنور الدين ومن بعده صلاح الدين إلا فى المرة الثالثة وذلك بسبب غدر شاور واستقدامه الصليبيين لمحاربة جيش الشام بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه ومع هذه الخيانة وذاك الغدر لم يقطع أسد الدين الأمل فى صلاح شاور وإنابته حتى إنه حذره من مغبة ما قد يصيبه من الجند الشامى ، وهو الأمر الذى لم يرضه صلاح الدين ورفاقه فأوقعوا بشاور وسرعان ما جاءهم الأمر من العاضد بقتله جزاء على غدره ومكره [2].

والحقيقة أن شاور كان يستحق القتل جزاء وفاقا لما ارتكبه من جرائم فى حق الإسلام والمسلمين حتى إن أحد المتعاطفين مع الفاطميين يصف حال وزراء الدولة فى أيامها الأخيرة وما كان عليه وزراؤها ذاكرًا لكل وزير ما امتاز به من عمل ، يقول المقريزى: (من تأمل أحوال الوزراء فإنه يجد الصالح بن رزيك ربى رجال الدولة ، وجاء الضرغام فأفناهم ، ثم جاء شاور فأتلف أحوال مصر

---

(١) انظر الروضتين ٢ / ٩ ، ومفرج الكروب ١ / ١٣٧ وما بعدها .

(٢) مفرج الكروب ١٦١/١ ، وانظر الروضتين ٢ / ٥٥ .

وأطمع الغز فى البلاد وجرأ الفرنج عليه) (١). ومـــن أمثلــة ذلــك مراسلته للصليبيين واستغاثته بهم واستصراخه إياهم فجــــاءوا علـــى الصعب والذلول كما يقول أبو شامة (٢) .

حتى إذا استقر أمر الصلح بين أسد الديـــن والصليبييـــن علـــى انسحابهما من مصر وتركها لأهلها إذ بشاور قد صانعـــهم علـــى أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ــ حامية وقاعدة ــ بالإضافة إلى الأمـــوال الباهظة التى يجبيها لهم (٣) .

ومن هنا فلا تعجب إذا ما فكر شاور فى قتل أسد الدين شـيركوه ومن معه لولا أن نهاه ابنه الكامل قائلا له : (لئن عزمت على هـذا الأمر لأعرفن أسد الدين ، فقال له أبوه : والله لئن لم أفعـــل لنقتلــن جميعًا ، فقال : صدقت ولأن نقتل ونحـــن مســلمون والبـــلاد بيـــن المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج فليس بينك وبيـــن عـــود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العـــاضد إلى نور الدين لم يرسل فارسا واحدًا . ويملكون البلاد ، فـــترك مـــا كان عازما عليه) (٤) .

---

(١) اتعاظ الحنفا ٣ / ٢٢٨٧ . الروضتين ٢/ ١١ .

(٢)الروضتين ٢ / ١١.

(٣) مفرج الكروب ١٥٨/١. الروضتين ٢ / ٥٦ .

(٤) مفرج الكروب : ١٦١/١. الروضتين ٢ / ٥٦.

أسد الدين وتوليته الوزارة

وما أن قتل شاور حتى أسندت الوزارة إلى أسد الدين وخلعت عليه الألقاب وأغدقت عليه الهدايا والأموال وإن لم تطل ولايته فقد استأثرت به يد المنون بعد شهرين من تمام الأمر له .

وقد أجمل أبو شامة صفاته وما كان عليه من أخلاق فقال : (وكان شجاعًا بارعًا ، قويا جلدًا فى ذات الله ، شديدًا على الكفار وطأته ، عظيمة فى ذات الله صولته ، عفيفًا دينًا ، كثير الخير ، وكان يحب أهل الدين والعلم ، كثير الإيثار ، حدبا على أهله) [(١)].

ولم يكن هذا التقدير لأسد الدين شيركوه قاصرًا على المؤرخين العرب وحدهم وإنما شارك فيه الغربيون حيث يقول فيه (ستفن ش) : إن الخدمات التى أداها عمل شيركوه للإسلام والمسلمين لجديرة بأن يكتبها التاريخ على صفحاته بأحرف من الذهب لأنه بعد مضى عشرين سنة على توليه أسر مصر عادت مدينة القدس إلى أيدى المسلمين كما عاد كثير من البلاد التى كانت بيد الإفرنج ، ولأنه كذلك لم يسترح يومًا واحدًا من الحروب) .

---

(١) الروضتين ٢ /١١٤.

ويسترسل (ستيفن ش) فى بيان وصف أسد الدين فيقول :

ولقد كان ذا نظر بعيد فـــى الأمـــور ، يضـــع الخطـــط لنفســـه فلا يغيرها بل ينفذها بكل جدارة وإقدام ، ولو كان مات قبـــل موتـــه بستة أشهر لكان مصابه أليمًا ورزؤه جسيمًا على نور الدين وأهلـــه وبلاده ولكنه مات بعد أن أنهى ما علق فى عنقه .

وانقضت مهمته التى تطاول إليها فأدركها تاركًا ثمـــرة جـــهاده وانتصاراته إلى ابن أخيه يوسف صلاح الدين الـــذى اســـتحق بكـــل جدارة شرف الوراثة لهذا البطل الكبير (١).

---

(١) انظر بين العقيدة والقيادة ــ محمود شيت خطاب ص ٣١٢، ٣١٣ .

المبحث الثالث

نشأة صلاح الدين وصفاته

أما بيت القصيد لهذه الأسرة فكان صلاح الدين وهو موضوع هذه الدراسة :

مولده ونشأته :

ولد يوسف بن نجم الدين فى عام ٥٣٢هـ [١] بقلعة تكريت [٢] وإن لم يطل مقامه فيها فقد أخرج منها يوم مولده إلى الموصل ثم تنقل صلاح الدين بتنقل والده فأقام بضع سنين فى بعلبك ثم دمشق فطال فيها مقامه وتولى شرطتها (الشحنة) فظهر حزمه وتفتقت قدراته وعلت مواهبه فانتبه له نور الدين فضمه إليه ، ويبدو أن الأعمال الإدارية والجهادية قد استولت على قلب صلاح الدين فصرف إليها همته حتى ملكت عليه نفسه من أقطارها وظهرت كفايته وأدرك عمه أسد الدين مخايل شجاعته فحرص على أن يصحبه إلى مصر على كره من صلاح الدين وفيها أبلى بلاء حسنا ، وما أخذه بشاور وقتله إلا صورة من حسن رأيه وحصافته [٣].

---

(١) انظر النوادر اليوسفية ، الروضتين ٢ / ٢٥٦. وانظر أيضا النجوم الزاهرة ٥/١ .

(٢) وهى بلدة قديمة تقع بين بغداد والموصل افتتحها المسلمون فى السنة السادسة عشرة ، انظر معجم البلدان . وانظر أيضا بلدان الخلافة الشرقية لكى استرنج .

(٣) انظر الروضتين ٢ / ١٠ ، ٥٢.

وإذا كان السلطان نور الدين قد أدرك بحدسه وبصيرته مكانة صلاح الدين وقدراته الفائقة [1] ، فإنها لم تغب عن الخليفة العاضد فقربه إليه واختاره للوزارة بعد وفاة عمه (أسد الدين) [2] .

خلق صلاح الدين :

المتأمل لسيرة صلاح الدين يجده قد تميز بالخلق الرفيع حتى ليصدق عليه القول كان خلقه الإسلام بكل ما يمثله الإسلام من قيم عالية ومبادىء سامية ، فهو يسير مع الإسلام وفى ظلاله بخطى حثيثة ، فى حله وترحاله ، فى حربه وفى سلمه ، مع أوليائه وبين خصومه وأعدائه . وقد صور لنا صفاته وشمائله القاضى بهاء الدين ابن شداد حيث كان ملازمًا له ، لصوقا به [3].

ويمكننا تتبع هذا الخلق ومظاهره فى السطور التالية :

التقــــوى [4] :

وهى جماع صفات الخير وأسمى الفضائل ومنبع الطاعات ومعدنها ، ويمكننا القول إن مفتاح شخصية السلطان لا يعدو التقوى وتظهر لديه واضحة جلية من خلال الصور والأحوال التالية :

---

(١) انظر الروضتين ١ / ٢٧٥ .

(٢) انظر تفصيل ذلك فى مبحث القضاء على الدولة الفاطمية.

(٣) انظر النوادر اليوسفية ص ٢٤ بتحقيق محمود صبح .

(٤) انظر تفصيل هذه الصفة فى الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٦٥٦ وما بعدها . والروضتين ٣ / ٣٨٠ ، والنوادر السلطانية ص ٢٥ .

١ــ تعظيمه لشعائر الله تعالى .

٢ــ حسن ظنه بالله والاعتماد عليه والإنابة إليه .

٣ــ حبه لسماع القرآن الكريم مع الخشوع والتدبر .

٤ــ المواظبة على النوافل والإكثار منها فضلاً عن مواظبته على صلاة الجماعة يقول السلطان ابن شداد : (إن له سنين ما صلى إلا جماعة) .

ومن هذه الصفة تتفرع سائر سماته وخصاله وأهمها :

الـــــورع :

وهو من الصفات الملازمة للتقوى والمترتبة عليها ومن شواهده عند السلطان المقامات التالية .

*** استعلاؤه على شهوة المال :**

فمع أن الله سبحانه وتعالى أفاء عليه ومكن له وجمع بين يديه ثروات العالم الإسلامي ، ضرب في الزهد فيها والاستعلاء عليها المقام الأسنى ليلتحق في ذلك بالخلفاء الراشدين .

ويكفي أن نذكر هنا أن تركته لم تزد على دينار وسبع وثلاثين درهمًا فقط لا غير [١] وأن تجهيزه ــ عندما انتقل لرحاب ربه ــ قام به كاتبه العماد الفاضل .

---

(١) وهو ما أطبق عليه كتاب سيرته والمؤرخين له .

أيضًا يظهر هذا الورع فى خوفه من الله تعالى وافتقاده إليه جل شأنه وحرصه على أن يدفن على طريق المجاهدين حتى يدعو له (الوارد والصادر والبادى والحاضر) [1] .

رأى يومًا كاتبه مستخدمًا دواة من الفضة فأنكر عليه ذلك [2] .

وبالجملة فهو كما وصفه صاحبه (يغضب للكبائر ولا يغض عن الصغائر ويرشد إلى الهدى ويهدى إلى الرشاد ويأمر بالسداد)[3] .

العــــدل :

وقد أعاد صلاح الدين لنا هذه الصفة بعد طول اغتراب ، فهو يجلس مع خصومه أمام القاضى دونما أنفةً أو ضجر . وقصة عمر الخلاطى الذى ادّعى عليه تركة أحد غلمانه (سنقر) وطلب من القاضى أن يساوى بينهم وبين السلطان فى مجلس القضاء واستجاب

---

(١) انظر الروضتين ٤/ ٣٦٥ .

(٢) الفتح القسى : صـ ٦٥٩ الروضتين : صـ ٣٨٠

(٣) انظر النوادر اليوسفية .

له السلطان فجلسا معًا أمام القاضى ثم تبين لابن شداد كذب المدعـى، فما كان من صلاح الدين إلا أن أجزل لهذا المدعى الصلة .

الأمر الذى دعا القاضى إلى التعليق على هذا الموقف بقولـــه : (فانظر إلى ما فى طى هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة مـن التواضع والانقياد إلى الحق وإرغام النفس ، والكـرم فـى موضـع المؤاخذة) (١) .

ولم يكن موقفه هذا من باب حب المدح والثناء وتسجيل المواقف وإنما كان للعدل عنده موضعه الذى لا يدانيه موضع ، الأمر الـذى جعل ابن شداد يصفه بقوله :

(وكان عادلاً رؤوفًا ناصرًا للضعيف على القوى وكان يجلـس للعدل كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره الفقهاء والقضـاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتـى يصـل إليـه كـل أحـد .. وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع ظلامته وأخذ قصتـه وكشـف قضيته) (٢) .

---

(١) المصدر السابق.

(٢) النوادر اليوسفية ص ٥٣ وما بعدها .

الحلـــــم :

قلب ملأه الورع ولازمته التقـوى وعمّـره الإيمـان وصقلته الشجاعة لابد أن يكون رقيقًا حليمًا ذلك أن الشديد فى الإسلام ليـس بالصرعة وإنما هو من يملك نفسه عند الغضب على ما أشـار إليـه نبى الإسلام ﷺ ومن هنا كان حلم صلاح الدين زينة يتوج بها مآثره ، ويورد لنا ابن شداد العديد من المواقف الموجبة لعقاب المتجاسـرين عليه المشاكسين له إلا أن حلمه كان يغلبه فيغض عن تصرفاتـهم ، وقد يتزاحم عليه الركب حتى إنه ليؤذيه هذا الزحـام فمـا يغضـب أو يستنكر وإنما يبتسم .

يقول ابن شداد : (ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليـه لعرض القصص [١] وهو لا يتأثر لذلك .

فإذا ما تركنا ما بينه وبين أتباعـه ورعايـاه ونظرنـا صـوب مخالفيه وخصومه نجده لم يتغير ، فالحلم والأناة ملكة راسخة فيـه ، ويسوق لنا السبكى بعض ما جبل عليه من هذه الصفة فيقول :

(وربما حاصر قومًا ولم يمنع عنهم الميرة وجرى معهم علـى كذبهم وهو مع ذلك يحلم عنهم ويراعى مصلحة الدين) ويضرب لنـا

---

(١) المصدر نفسه.

السبكي مثالاً لذلك بما جرى في مدينة حمص (وقد افتتح المدينة وعصت عليه القلعة ولم يمنع الميرة عن أصحابها ، ثم لما تبين له حالهم لم يبادر إلى الهدم مع ما فيه من سرعة نصرته خشية على القلعة لكونها من حصون المسلمين ، وطاول لهم الأمر إلى أن تيسر له فتحها) (١) .

المروءة والنبل :

ومن تمام صفات البطل صلاح الدين ما جبل عليه من المروءة والنجدة التي شملت أولياءه وأعداءه على حد سواء ، وإذا كان ابن شداد ونظراؤه من المؤرخين المسلمين قد سجلوا لنا الكثير من خلق صلاح الدين فإن صفة المروءة والنجدة مما اشترك في وصفها وتسجيلها أنصاره وخصومه على السواء . فهذه الصفة أشاد بها العديد من خصومه فضلا عن أنصاره ، فأهم صفات صلاح الدين لدى القريبين قاطبة التسامح والمروءة ، حتى وليم الصوري يشيد بنبل صلاح الدين .

ومن صور هذا النبل اعترافه بما قدمه له العاضد فيقول : " ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل لي مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها " (٢) .

---

(١) طبقات الشافعية ٧ /٣٤٩ .

(٢) طبقات الشافعية صـ٣٥٥ .

ويتحدث عن للبيت الأتابكى فيقول : (إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم ، ولا نختار للبيت الأتابكى أعلاه الله إلا ما حفظ أهله وفرعه فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، ونحن فى واد والظانون بنا سوء الظن فى واد) [1] .

أيضًا من مظاهر الوفاء عند صلاح الدين اهتمامه بالشيخ عصرون واستفتاء العلماء فى جواز إبقائه فى منصبه على ماسيأتى .

ومن اللمحات الدالة على هذا الخلق الرضى :

أن امرأة من الصليبيين فقدت رضيعها ، فأتته والهة مكلومة ، فرق لها وعطف عليها ودمعت عيناه ، وأمر بالبحث عن وليدها ، وأرجعها وإياه إلى معسكر أعدائه الذين يحاربهم معززة مكرمة [2] .

التواضع :

أتيح لصلاح الدين من سعة الملك وبسط النفوذ ما لم يتح لأحد من معاصريه ومع هذا عرف بالتواضع ، ومن الشواهد والدلائل على ذلك قول ابن الأثير : (لم يتكبر على أحد من أصحابه وكان يعيب الملوك المتكبرين على ذلك) [3] .

---

(١) طبقات الشافعية صـ ٣٦١ .

(٢) انظر القصة فى النوادر السلطانية ٥٩ وانظر الروضتين أيضًا صـ ٢٤٥ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١٢ /٩٧ .

وهو ما يؤكده فى موضع آخر بقوله : (ولم يلبس شيئا مما ينكره الشرع) [1] .

ومن المظاهر العملية لتواضع صلاح الدين مشاركته فى تحصين بيت المقدس حيث كان ينقل الأحجار مع أولاده وأجناده ضاربا المثل بذلك ؛ ليقتدى به الأمراء والقضاة [2] .

وما زيارته للسلفى فى الإسكندرية ، وسماع الحديث عليه إلا دليلا على ذلك .

ولقائل أن يقول : إن معظم هذه الصفات قد نقلها إلينا قاضيه ابن شداد ولعل ابن شداد هذا كان محبا له أو متأثرا به أو أنه قد جمل صورته بما ليس فيه .

والجواب أن القاضى لم يكن مجرد تابع للسلطان أو إمعة ، وإنما كان له رأيه المستقل ، وكثيرا ما كان يحاور السلطان ويناقشه ، وهو المعنى الذى يعبر عنه (جب) بقوله : (ولا ريب أن بهاء الدين لم يعمد إلى إخفاء أى حقيقة أو تحريفها) [3] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩٧/١٢ .
(٢) انظر الروضتين ٤ / ٢٨٩ .
(٣) دراسات فى حضارة الإسلام ص ١٢٣ ط دار العلم للملايين .

وعلى الرغم من اعتراف (جب) بالعلاقة التى بين صلاح الدين وقاضيه والتى يصفها بأنها علاقة إعجاب صديق نزيه قويم الطريقة لا يكتم صديقه شيئا دونه [١].

ولم تكن هذه العلاقة القائمة على النصح والنقد والبعيدة عن المجاملة والمدح قاصرة على ابن شداد وإنما كانت اتجاها عاما بين أتباع صلاح الدين والمشايعين له ، ذلك أنها تمثل اتجاها إسلاميا لا يمكن تجاهله ولا يسمح للسلطان التقى للمحيطين به أن يتجاهلوه . وهو ما صوره لنا (جب) أيضا فى وصفه لعلاقة الرجل الثانى فى بلاط صلاح الدين بالسلطان وأعنى به العماد الأصفهانى ، يقول (جب) : حقا كان عماد شديد الإعجاب بصلاح الدين ولكنه فى كتاباته ينقد أعماله وأحكامه أحيانا ، ويبدو فى الواقع أنه كان ينتقده بمحضره) [٢] .

وفوق هذا وذاك فإن فى تراجم المؤرخين والفقهاء والعلماء والكتاب من الإشادة بخلق صلاح الدين والتغنى بصفاته ما يجعل هذه الصفات حقيقة راسخة .

ونورد هنا بعضا من هذه الرؤى والشهادات سواء لدى الكتاب المسلمين أو الغربيين .

---

(١) دراسات فى حضارة الإسلام صـ ١٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ١٢٤ .

المبحث الرابع

صلاح الدين فى رؤى المؤرخين المسلمين

١ـ العماد الأصفهانى

فإذا ما تركنا ابن شداد جانبا وولينا وجوهنا تجاه العماد الأصفهانى وجدنا السمات والخصائص عندهما واحدة (محاضره مصونة وخلوته مقدسة بالطهر ، ومجالسه منزهة من الهزء والهزل ، ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل ، وما سمعت له قط كلمة تسقط ولا لفظة فظة تسخط) (١).

ومفتاح شخصيته التقوى والاستقامة فهو (يغضب للكبائر ، ولا يغضى عن الصغائر ، ويرشد إلى الهدى ويهدى إلى الرشاد ، ويسدد الأمر ويأمر بالسداد) (٢). وبتعبير مجمل (كان يأخذ بالشرع ويعطى به) (٣).

وقد أطال العماد كنظيره ابن شداد فى مناقب صلاح الدين وشمائله ووضع المصنفات تلو المصنفات فى الإشادة بفضائل السلطان وجميل مآثره .

---

(١) الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٦٥٦ .

(٢) نفسه : ٦٥٩ .

(٣) ذاته : ٦٦٠ .

مبينا منهجه فى ذلك وأنه قائم على الصدق موافق للحق (ومـــا شهدت إلا بما شاهدته وشهدته ، وما توخيت إلا الصدق وما انتــهيت إلا الحق ، ولا ذكرت كلمة تسقط ولا أعتمـــد إلا مـــا يرضـــى الله ولا يسخط) (١).

٢- ابن الأثير

يعد الكامل لابن الأثير من المصادر الهامة التى تناولت شخصية صلاح وحروبه وقد وصفه بالعديد من الصفات فقال : كان ــ رحمــه الله ــ كريما ، حليما ، حسن الأخلاق ، متواضعًــا صبــورا علــى ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه يسمع عن أحدهم ما يكــره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه (٢).

ويعرج ابن الأثير على ما اتصف به من علم فيقـــول : وكــان عنده علم ومعرفة ، وسمع الحديث وأسمعه ، وبالجملة كان نادرا فــى عصره كثير المحاسن والأفعـــال الجميلـــة ، عظيـــم الجـــهاد فــى الكفار (٣).

---

(١) نفسه : ٥٨ .
(٢) الكامل : ٩٦/١٢ .
(٣) نفسه : ٩٧ .

٣- السبكى [1]

افرد تقى الدين السبكى جزءا كبيرا للإشادة بالسلطان صلاح الدين والتعريف به وقد وصفه بقوله : وهو السلطان الملك الناصر ، النقى ، العالم الذكى ، العادل الزكى ، فاتح الفتوح ، بركة أهل زمانه كان ملكا عظيمًا شجاعا وعادلا ، يملأ العيون روعة والقلوب محبة ، قريبًا وبعيدا ، عابدا قانتا لله ، لا تأخذه لومه لائم . . .

وأخذ فى نصرة السنة وإشاعة الحق وإهانة المبتدعة .

٤ـ عبد اللطيف البغدادى

موفق الدين عبد اللطيف البغدادى .

وصف البغدادى مجلسا لصلاح الدين فقال : (رأيت السلطان صلاح الدين على القدس ، فرأيت ملكا عظيما يملأ القلوب روعة والعيون محبة قريبا وبعيدا ، سهلا محببا ، وأصحابه يتشبهون به يتسابقون إلى المعروف .. وأول ليلة حضرته وجدت مجلسا حافلا بأهل العلم يتذاكرون فى أصناف العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة) .

---

(١) طبقات الشافعية ٣٤٠/٧. وانظر سير أعلام النبلاء أثناء ترجمة صلاح الدين .

ويسترسل البغدادى فى بيان مناقب السلطان فيقول : (كان مهتما فى بناء سور القدس وحفر خندقه يتولى ذلك بنفسه ، وينقل الحجارة على عاتقه ويتأسى به جميع الأغنياء والفقراء ، فيركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر) .

(وهانت عنده الدنيا وملكها ، وشكر نعمة الله تعالى عليه وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص الجد والاجتهاد ومازال على قدم الخير وفعل ما يقربه إلى الله تعالى إلى أن مات) (١).

٥-أسامة بن منقذ (٢)

تحدث أسامة بن منقذ عن صلاح الدين كثيرا وهنأه بانتصاراته وأكثر من الثناء عليه ونقتطف من ذلك قوله :

والسلطان الذى أحيى سنة الخلفاء الراشدين ، وأقام عمود الدولة والدين ، والبحر الذى لا ينضب لكثرة الواردين ماؤه ، والجواد الذى لا ينقطع من تتابع الوافدين عطاؤه ، فلا زالت الأمة من سيوفه فى حمى منيع ، ومن إنعامه فى ربيع مريع ، ومن عدله فى أنوار تكشف عنهم ظلم المظالم ، وتكف بسطة يد المعتدى الغاشم ، ومن دولته القاهرة فى ظل وارف ، وفى سعود متتابع آنفا فى أثر سالف ، ما تعاقب الليل والنهار .

---

(١) طبقات الشافعية ٣٤٨ . وانظر أيضا عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، فى ترجمة البغدادى .

(١) كتاب الاعتبار ١٤٨.

٦ــ الذهبى

يصف الذهبى صلاح الدين بالعديد من الصفات المنبئة عن جليل قدره وعظيم منزلته فيقول : وكان خليقا للإمارة ، مهيبا ، شجاعا حازما ، مجاهدا كثير الغزو ، عالى الهمة [1] ويجمل الذهبى كذلك صفات السلطان فيقول : محاسن صلاح الدين جمة ، لا سيما الجهاد ، فله فيه اليد البيضاء ببذل الأموال والخيل المثمنة لجنده ، وله عقل جيد ، وفهم ، وحزم وعزم [2]

٧ــ ابن كثير

ونختم موكب الإشادة هذه ببيان مكانة صلاح الدين وفضله بقول ابن كثير : كان ردء للإسلام وحرزا وكهفا) [3] .

ثم يستطرد مبينا غاية صلاح الدين فيقول : (إن همه الأكبر ومقصده الأعظم نصرة الإسلام وكسر أعدائه) [4] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٧٩/٢١.

(١) نفسه ٢٧٨.

(١) البداية والنهاية : ٣/١٤.

(١) نفسه ٥/١٤.

المبحث الخامس

شمائل صلاح الدين فى مرآة الشعراء

لم يتخلف الشعراء عن مواكبة العلماء والمؤرخين فـــى تســـجيل مناقب صلاح الدين ومن إبرز الصفات التى تغنى بها الشعراء .

علو الهمة :

وفيها يقول أبو الفضل الجليانى :

لتظفرنْ بما لم يحوه ملك
أبا المظفر ، حظـــا خـــطه الأزل

دليل ذلك أراء لك اقترنت
بالحزم والعزم ، لم يخصص بها الأول

وهو ما أكده ابن سناء الملك بقوله :

أراد ملوك الأرض سعدك ، واشتهوا
تعلمه ، والسعـــــــــد لا يُتـــعلَّمُ

ملكت أقاليم الملوك ، وإنما
سهرت وأملاك الأقاليم نوم

ويقول فيه أيضًا :

حتى أتى من منال النجم مطلبه
يا طالب النجم ، قد أوغلت فى الطلب

الزهـــــد :

وفيه يقول الحكيم أبو الفضل :

زهدت فيما سبى الأملاك منكدرا

علمـــــا بملك نعيـــم ما به كــــــدر

وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها

وجئت تقدم حيث الهول والخطر

أما الكـــــرم :

فيقول فيه سعادة بن عبد الله :

سمح بروح إلى الندى براحة

قد أعشب المعروف بين بنــــــانها

وفتى إذا زخرت بحار نواله

. غرقت بحار الأرض فى خلجانها

ويقول سبط ابن التعاويذى :

فلا يضجرنك ازدحام الوفو

د عليك ، وكثرة ما تبذل

فإنك فى زمن ليس فيـــه

جواد سواك ، ولا مفضل

وقد قل فى أهله المنعمون

وقـــد كثر البائس المرمل

وما فيه غيرك من يستماح

وما فيه إلاك من يـــسأل

ويقول أبو طالب بن الخشاب :

ولقد ظمئت فلم أجد بدلا من الماء

الزلال سوى مواطرِ سُحبِه

ويقول العماد :

وقيل لنا : فى الأرض سبعة أبحر

ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا

ويقول سبط ابن التعاويذى :

قسمًا لقد فضل ابن أيوب الحيا [1]

بسماح كفٍّ بالنضار هتون [2]

الحلـــــــــم :

وفيه يقول سعادة :

كريم إذا ما جاءه معدم حبا

حكيم إذا ما جاءه مجـــرم عفا

ويقول فيه نجم الدين يوسف بن الحسين :

عزم وحزم أنسيا ما كان من

عزم ابن مرداسٍ وحلم الأحنف

---

(١) الحيا : المطر .

(٢) النضار : الذهب ، وهتن المطر : قطر .

التواضـــــع :

يقول سبط ابن التعاويذى :

لك عفة فى قدرة وتواضع
فى عزة وشراسة فى لين

الشجاعـــة :

وكانت صورة صلاح الدين بطلا مجاهدًا من أبرز الصور التـــى احتفظ بها الشعراء له بها ، كتب إليه أسامة بن منقذ يقول :

تهن يا أطـــــول الملوك يدا
فى بسط عدلٍ ، وسطوة وندى
لا تستقل الذى صنعت ، فقد
قمت بفرض الجهاد مجتهدًا
وجبت أرض العدى ، وأفنيت من
أبطالهم ما يجاوز العـــــددا
وما رأينا غزا الفرنج من الـــــ
ملوك فى عقر دارهم أحدا

وقال الرشيد بن النابلسى من قصيدة له :

ما أبهج الدين والدنيا بمالكها الصديق
يوسف ، لا لانت به الغير (١).
ملك تساوى جمادى فى الجهاد ، وتموز
لديه ، وضاهى ناجرا صفر(١).

---

(١) غير الدهر : أحداثه .

فليس يثنيه حر إن توقَّد عن
رضا الإله ولا إن أغدق المطر
ولا ينهنهه عما يكابده ضح
أعيذ معاليه ولا ضجر
ولا يرى الروح إلا ظهر سلهبة
فى بطن معركة مركوبها وعر [٢].
صبر جميل ، كطعم الشهد فى فمه
وعند كل مليك طعمه الصبر [٣].

ويقول أسامة أيضًا :

يعطى الألوف ، ويلتقيها باسما
طلق المحيَّا فى القنا المتشاجر

ويقول فخر الكتاب الجوينى :

لك قلب عند اللقاء مكين
وله من تقاه ألف كمين
يا مليكا يلقى الحروب بحول الله
مستعصما وصدق اليقين

ويقول أيضًا أبو الفضل الجليانى :

فكم مليك لهم شق البحار سرى
لينصر القبر ، والأقدار تخذله

---

(١) تموز : شهر يولية ، والناجر : كل شهر من شهور الصيف .
(٢) الروح : الراحة ، والسلهبة من الخيل : ما عظم وطال عظامه .
(٣) الصبر بكسر الباء : الدواء المر .

المبحث السادس

صلاح الدين ومكانته فى الأدب الغربى

حظى صلاح الدين بشهرة واسعة فى الغرب تماماً كشهرته ومكانته فى الأدب العربى فهو النموذج الكامل للفروسية كما أن تسامحه ونبله وخلقه كان مضرب الأمثال .

وفى هذه العجالة القصيرة نورد بعضا من شهادات المؤرخين الغربيين عنه سواء الذين عاصروه أو من جاءوا من بعدهم .

صلاح الدين وجب :

عقد المستشرق الإنجليزى الشهير هاملتون جب مبحثين ضافيين فى الحديث عن صلاح الدين ضمن كتابه " حضارة الإسلام "الأول : حديثه عن الجيش وتنظيمه ، وعدده وإقطاعيات قواده وأجناسه ، من مصريين وسوريين وعراقيين وأهم المعارك التى خاضها [١].

أما المبحث الثانى : فكان بعنوان (مآثر صلاح الدين)

ابتدأه بتفنيد ما يدعيه بعض المؤرخين من أن صلاح الدين كانت تحركه أطماعه ورغبته فى تكوين إمبراطورية يسيطر عليها إخوته وأقاربه .

---

(١) انظر دراسات فى حضارة الإسلام ص ٩٧ وما بعدها ط . دار العلم للملايين .

فيورد سؤلا مؤداه هل كان صلاح الدين واحدا من أولئك القـــادة المحظوظين ممن لا يقـــف فـــى طريقـــهم حـــاجز ، ولا يحفزهـــم إلا الطموح الشخصى وشهوة الفتح ؟ (١).

ثم يجيب عليه من خلال تتبعه لصفات صلاح الدين وســـجاياه وأعماله بما ينقضه من أساسه مبينا أن هدف صلاح الدين وغايتــه أن يعيد الكيان الإسلامى فى ظل دولة واحدة موحدة ، وأن يبعث ذلـــك الكيان مجددا ، لا تحت حكمه هو ، وإنما بأن يعود إلى حكم الشريعة تحت إشراف الخليفة العباسى (٢).

ويسوق جب لتأييد رأيه هذا عددا من الدعائم أولها : قول صلاح الدين مبينا مقاصده فى إحدى رسائله إلى الخليفة : (وهذه المقـــاصد الثلاثة : الجهاد فى سبيل الله ، والكف عن مظالم عباد الله ، والطاعة لخليفة الله هى مراد الخادم من البلاد إذا فتحها ومغنمه من الدنيـــا إذا فتحها والله العالم) (٣).

---

(١) المصدر نفسه ١٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ١٣٣ .

(٣) المصدر ذاته ١٣٤ ، وانظر الرسالة فى الروضتين .

إن صلاح الدين أكد ذلك عندما قال لقواده وقد شعر باستيائهم لتحويل إحدى الإقطاعيات إلى الخليفة : (السلطان الخليفة ملك الخليفة .. إن وصل إلينا أعطيناه هذه البلاد فكيف شهر زور ؟) [1].

ولا ينسى جب أن يدعم رأيه بتسامي شخصية صلاح الدين عن الأطماع فيحدثنا عن بعض مظاهر شخصيته التي ساعدته في الانتصار : (وإنما حقق ما حققه من ذلك بإنكاره الذات ، وتواضعه وكرمه ودفاعه المعنوي عن الإسلام ضد أعدائه وضد من ينتمون إليه انتماء إسميا على حدٍ سواء) [2].

ويقول في موضع آخر : (انهمك في صراع مرير في واقعه ولكنه لما كان قد سعى إلى تحقيق حلمه بإنكار الذات والعدل والإخلاص فإنه استطاع بهذه الأسس الأخلاقية وحدها أن يضطلع بالمهمة الملقاة على عاتقه) [3].

كما يعقد جب مقارنة بين صلاح الدين وخصومه من الناحية الأخلاقية فيقول : (ولقد حير أعداءه من الأدنين والأبعدين لأنهم

---

(١) المصدر ذاته : ١٣٤ ، وانظر الرسالة في الروضتين .

(٢) المصدر نفسه : ١٣٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣٨ .

كانوا يتوقعون أن تكون حوافزه مثل حوافزهم ، وأن يقوم بـالألاعيب والمداورات السياسية مثلما يفعلون) [1].

وينهى جب حديثه عن صلاح الدين بالإشارة إلى طبيعة الـدور الذى قام به صلاح الدين ، وهو دور تتضـاءل أمامـه انتصـارات صلاح الدين الحربية ، وهو دور لم ينتبه إليه الكثير من المؤرخيـن ، يقول جب : (لقد انتشل الإسلام ــ المسلمين ــ طوال فترة حاسـمة من وهدة الانحطاط الأخلاقى السياسى ، حين نادى بمثـل أخلاقـى أعلى ، ولما أن طبق هذا المثل على حياته الخاصة وأعمالـه خلـق حوله حافزًا للاتحاد) [2].

صلاح الدين و" بروكلمان "

تحدث المؤرخ الألمانى الكبير عن صـلاح الديـن فـى كتابـه (تاريخ الشعوب الإسلامية) حديثًا ملأه الإعجاب والإنصاف ، فـهو واحد من أعظم حكام المسلمين الذين ازدان بهم تاريخهم ؛ لما كـانوا عليه من شرف القصد وحسن السيرة ، ولما تحقق على أيديـهم مـن سؤدد ونصر .

---

(١) المصدر نفسه : ١٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ١٤ .

يقول " بروكلمان " : فلا يزال اسمه خالدًا إلـــى جـــانب أســـمى هارون الرشيد ، وبيبرس كرمز لحقبة مـــن أســـعد حقـــب التـــاريخ وأهنأها ، وليس من شك فى أن قلة ضئيلة من أمراء الإسلام كـــانت تضارعه من حيث تجرده عن أى نزعة إلى الكسب الشخصى ، ومن حيث انصرافه إلى خدمة دولته ورعاياها [1].

أما عن تسامحه فهو محل إجماع لدى أنصاره وخصومه علـــى السواء ، فهو ــ كما يقول بروكلمان ــ : ولم يستطع أعداؤه أنفســهم إلا الإقرار له بالشهامة والنبل فى معاملة الخصم المغلوب [2].

صلاح الدين والبروفيسور " كارول هيلنبراند " [3].

قدم البروفيسور كارول ورقة بحثية بمناسبة مرور ٨٠٠ ســـنة على موقعة حطين بعنوان (صلاح الدين وتطور أسطورة غربيـــة) عرض فيها لشهادات الأدباء والمؤرخين الأوروبيين ســـواء الذيـــن حضروا الحروب الصليبية وشاركوا فيها أو من المعاصرين ، ويبـــدأ كارول بوليم الصورى الذى كان مشاركًا فى هذه الحـــروب وغـــادر القدس قبيل موقعة حطين ووضع كتابًا فى تاريخ الحروب الصليبيـــة

---

(١) المصدر نفسه : ٣٥٨ .

(٢) المصدر السابق : ٣٥٨ .

(٣) أستاذ بجامعة أدنبرة بالمملكة المتحدة .

وصف فى ثناياه صلاح الدين بالعديد من الشمائل الرفيعة والصفات السامية فهو (رجل ذو روح متقد ، شجاع فى الحرب ، وسخى فى كرمه)، وهو أيضا (حكيم ، مفعم بحصافة القصد) ، ثم يشير إلى أمرين لهما دلالتهما الخاصة فى بيان مقدرة صلاح الدين وخطره على الإمارات الصليبية ، والمصير السىء الذى ينتظرها .

يقول وليم فى هذا الشأن : (إن كل مجهوداتنا لا ضرورة لها ، فلقد حاولنا عبثًا احتواءه ، وذرفت عيوننا دموعًا غزيرة فى هذا المشهد ، وبازدياد قوته ينهض هذا الأمير ضدنا على الأرض ومن البحر ، وليس لدينا أمل فى مقاومته بنجاح ما لم يساعدنا الله) .

صلاح الدين وديفيد جاكسون [(١)]

وضع ديفيد جاكسون بالاشتراك مع زميله توماس آدمز دراسة عن صلاح الدين فى عام ١٩٧٥م ، ونشرت فى أوائل الثمانينيات ، وقد اختصرها جاكسون فى الورقة المقدمة لندوة (٨٠٠ عام حطين صلاح الدين) وتدور هذه الورقة البحثية بصورة عامة على تفنيد بعض الشبهات التى تحوم حول صلاح الدين من بعض المؤرخين المعاصرين ، ومحصلها الإيماء (بأن أهدافه السياسية انصبت على

---

(١) الأستاذ بجامعة سانت اندروز .

تمجيد شخصه هو وعشيرته) [1]، وقد تصدى جاكسون بقوة لتفنيد هذه الشبهة وذلك من خلال الدلائل والشواهد التالية :

١ــ كان صلاح الدين حريصًا بدقة شديدة على أن يعرض على الخليفة دوافع عمله فى مراسلاته معه .

٢ــ أن الدوافع التى قدمها لأفعاله ترجع دائمًا إلى الحرب المقدسة وإلى الحاجة الماسة للوحدة من أجل تطوير متابعتها بنجاح .

٣ــ فى تعامله مع الزنكيين وأتباعهم حيث كان كريمًا بصورة رائعة بعد هزيمته لهم فى المعركة .

٤ــ بمجرد تحقيق صلاح الدين لهذا التوحيد شرع فى الحال فى تحقيق الأمر الذى كان يمثل اهتمامه الأساسى وهو تحرير القدس [2].

وبعد أن فند جاكسون هذه الشبهة عرج على بعض صفات صلاح الدين التى جعلت منه زعيمًا محبوبًا مثلما هو زعيم يحظى بالإعجاب (فقد كان إخلاصه ونبله وشهامته هى التى أكسبته الاحترام والمكانة المرموقة فى الغرب والشرق على حد سواء) [3].

---

(١) صـ٨٨ ويلاحظ أن هذا الاتهام دندن حوله محسن الأمين فى دائرة معارف الشيعة (انظر مادة الفاطميين) .

(٢) المصدر السابق بتصرف : ٩٠ .

(٣) ذاته : ٩٣.

صلاح الدين وشامب دور :

يقول (شامب دور) فى ترجمته لصلاح الدين : " إن صلاح الدين كان أنقى قادة العرب ، وإليه يرجع الفضل فى التمهيد لنهضة الإسلام السياسية ، وإنَّه كان على الصليبيين أن يواجهوا فى صلاح الدين حاكمًا ذكيا ماهرًا مرهوب الجانب ، عرف كيف يفرض على خصومه التقدير والاحترام لشجاعته ونزاهته وأمانته وسموّ خُلُقه ، تلك الخصائص الخلقية التى كان الشرق قد فقدها فى قادته منذ زمن بعيد " .

ويعجب المؤرِّخ (شامب دور) من أنَّ صلاح الدين الذى كان سيد الشرق ، والقائم على كلِّ ما فيه من ثروات وخيرات ، قد مات فقيرًا معدمًا حتى إنَّ أهله اضطروا إلى اقتراض المال الذى أعدُّوا به شئون جنازته يوم موته.

ويعجب (شامب دور) من قدرة صلاح الدين على التغلب على منافسيه سواء كانوا من العرب أو من الصليبيين خاصة وقد عملوا كل حيلة وتذرعوا بالوسائل غير المشروعة ، ومع هذا انتصر صلاح الدين .

ويقول (شامب دور) : " لقد كانت معجــــزة حقــا أن يتمكّــن صلاح الدين من البقاء فى الحكم دون الركون إلـــى وســـائل القـــوة والبطش بخصومه أو القضاء عليهم ، وأعجب من هذا أن يتمكن هــذا القائد العربى من إقامة إمبراطورية عربية قوية فى مدى محدود مـــن السنوات ، على الرغم من كل هذه المناورات ، وعلى الرغم مـــن أن الحروب الصليبية كان يقودها ويدير معاركها ، ويلظى نارها زعمـاء المسيحية خاصة من الغرب ممن يزعمون لأنفسهم رســالات الديــن والخلق ، ويتصفون بطابع الفكر والاتجاهات الروحية ـــ على الرغـم من ذلك كله ، فإنّه فى غمار تلك الحملات الصليبية وباسمها ارتكبـت أحطّ الجرائم من قتلٍ للأبرياء وسلب للآمنين وسبى للنساء ، مما لـــم يكن له مثيل فى تاريخ الحروب فى الشرق .

ونختم هذه الشهادات برؤية ستانلى لين بول ـ الذى وضع كتابًا ضخمًا فى سيرة صلاح الدين ـ لجزئية واحدة من أخلاق صلاح الدين وهى السماحة وفيها يقول :

عندما استرد القدس أعلن (فى جميع شوارع القدس أن كل المسنين ، وكل من لا يستطيع دفع فديته فهو حر للمغادرة) [1] .

ويعلق ستانلى على هذه الصنيعة بقوله (وهكذا كانت حسنات صلاح الدين على الفقراء لا تحصى) [2] .

أيضًا من الصور التى يقدمها لنا الكتاب فى التدليل على سماحة صلاح الدين ، إجابته لنساء الصليبيين فى إطلاق الأسرى من أزواجهن فوافق وبذل لهن مبالغ كبيرة من المال .

أيضًا من دلائل كرم صلاح الدين وحسن معاملته لمن كان بالمدينة من الصليبيين على الرغم من جشعهم ما يورده لنا ستانلى من أن بطريرك المدينة حمل كنوز الكنائس ، أقداحا ذهبية وكرستالية حتى الصحن الذهبى الخاص بالقبر المقدس ، زيادة على كمية كبيرة من حاجاته والتى يقول فيها ستانلى (أنه كان من الأفضل استعمالها كفدية للفقراء ولما احتج أمراء صلاح الدين على هذا التصرف أجابهم قائلاً (كلا لن أحنث بقسمى معه) .

---

(١) صـ ١٩٦ .

(٢) سيرة صلاح الدين ٢٠١ صـ١٦٦ .

ويعلق ستانلي أيضًا على هذا التصرف من صلاح الدين بقولـــه (الملك المسلم يعلم الكاهن المسيحي عمل الخير) (١) .

أيضًا من عظمة صلاح الدين حفظه الأمن عندما استرد القـــدس يقول كاتبنا (ظهرت عظمة صلاح الدين أكبر من أي وقت مضــــى فكان حراسه مسئولين عن حفظ النظام في كل شارع ومنعوا القيــــام بأي أعمال عنف أو إهانة ، حتـــى إنـــه لـــم يســـمع بأيـــة أهانـــة للمسيحين) (٢) .

---

(١) نفسه صـــ١٩٦ .

(٢) صـــ ١٩٥ .

الفصل الثانى

صور من مآثر صلاح الدين

ويتكون من المباحث التالية :

١ ــ صلاح الدين والعلم .

٢ ــ صلاح الدين والقضاء على الدولة الفاطمية .

٣ ــ صور من جهاد صلاح الدين ومعاركه.

المبحث الأول

صلاح الدين والعلم

من الشمائل التى تميزها بها السلطان صلاح الدين ، وبها أعاد إلى الأذهان سيرة الخلفاء العلماء فى الحرص على العلم والشغف به ، وهو أمر لا تكاد تخطئه العين لمن تأمل سيرته أو درس تاريخه وأعماله ، فلا غرو أن يكون البطل المغوار فى حومة الوغى المتحنف بالشرع فى مجال الحكم وميدان السياسة المعلى من شأن العلم الرافع لذكر العلماء . ويمكن تتبع اهتمام صلاح الدين بالعلم من خلال رصد المظاهر التالية فى سيرته وحياته :

١- ثقافة صلاح الدين :

لم ينشأ صلاح الدين أن يترك نفسه لأعمال الفروسية وشئون الحرب والجهاد دون أن يصقلها بالمعرفة ويأخذها بالعلم فأقبل على القرآن الكريم يحفظ ويدرس ويتدبر ويعمل فقد ذكر السبكى . أنه حفظ القرآن الكريم (١) ، ثم اتجه بعد ذلك بكليته إلى سماع الحديث بالأسانيد (٢) ، وقد فسر لنا ابن شداد هيامه بالسماع فقال : (وكان ــ رحمه الله ــ شديد الرغبة فى سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره

---

(١) طبقات الشافعية ٧ / ٣٤٠ . وانظر أيضًا النوادر السلطانية .

(٢) انظر الفتح القسى فى الفتح القدسى ٦٥٦.

وسمع عليه ، وأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر للناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له ، وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور فى مجالسهم سعى إليه وسمع عليه (١).

ومن شواهد ذلك سفره إلى الإسكندرية وسماعه من الحافظ السلفى ، ثم ذهابه مرة أخرى للقاء ابن عوف والأخذ عنه .

فذهب فى عام ٥٧٢هـ إلى الإسكندرية بصحبة ولديه الأفضل والعزيز بالإضافة إلى العماد الأصفهانى الذى وصف لنا لقاءهم بالحافظ السلفى فقال : (وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد السلفى ، وداومنا الحضور عنده ، واجتلينا من وجهه نور الإيمان وسعده ، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان واغتنمنا الزمان ، فتلك الأيام الثلاثة هى التى حسبناها من العمر) (٢).

وقد علق السيوطى على هذه الرحلة بقوله : (ولم يعهد ذلك لملك بعد هارون الرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطأ) (٣).

---

(١) النوادر السلطانية ص ٢٩ .

(٢) الروضتين ٢ / ٤٤٨ .

(٣) حسن المحاضرة ٢ / ١٩ .

أما لقاؤه بابن عوف فكان فى عام ٥٧٧هـ حيث يذكر العماد الأصفهانى رغبة السلطان فى اغتنام حياة الشيخ ليسمع عليه الموطأ أيضًا برواية الطرطوشى [1]. وقد أطنب القاضى الفاضل فى تهنئة السلطان صلاح الدين بهذا السماع ومن ذلك قوله: (وأسعده الله برحلته للعلم وأثابه عليها . . . والحمد لله الذى جعله ذا يومين ، يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه ، ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه ، ففى الأول يطلب حديث المصطفى . وفى الناس يجعل لنصره . ثم سيرسل القاضى الفاضل مبينًا اهتمام صلاح الدين بهذه الرحلة الحديثية اتباعًا لعلماء الحديث وجريا على سنتهم فيقول : (وقد استغرب الناس همم العلماء فى رحلتهم لنقل الحديث وسماعه ، والموالاة فى طلب ثقته وانتجاعه ، ووضعوا فى ذلك تصانيف . . هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم ، وشغل به وحده ، ووقف عليه فكره ، [2] ومن تمام عناية صلاح الدين بدروس الحديث أن عين لها الإمام تاج الدين الندهى فى جماعة من أهل العلم [3].

بل إن صلاح الدين يخطو خطوة أخرى فى الهيام بالحديث فيقرأ عليه جزءان من الحديث بين الصفين استجابة لقاضيه ابن شداد

(١) الروضتين ٣ / ٨٩.

(٢) نفسه ص ٩٠ .

(٣) انظر المصدر نفسه ص ٧٣.

عندما ذكر له أنه قد سمع الحديث فى المواطن الشريفة ، ولم ينقـــل إنه سمع بين الصفين فاستجاب لفكرة ابن شداد .

فأذن فى ذلك ، فأحضر جزءه كما أحضر من له به سماع فقـوأ عليه ، ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ، نمشى تـــارة ونقــف أخرى [1] .

صلاح الدين وثقافته الفقهية :

كان لمترجمنا ميل إلى الفقه فهو يحفظ كتاب التنبيه فـــى الفقــه الشافعى ، كما كانت لكثرة جلوسه مع الفقهاء والقضاة أثر كبير فـــى التفطن له الأمر الذى جعل العماد يصفه بأنه أعلم من القضاة والفقهاء الملازمين له وذلك حين يقول : (كان لمداومة الكلام مع الفقـــهاء ، ومشاركة القضاة فى القضاء ، أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية) [2].

ولا شك أن هذه مبالغة من العماد اللهم إلا إذا كانوا مـــن عـــوام الفقهاء ، وإن كان إدارج السلطان فى طبقات الشافعية [3]. على نحو فعل السبكى يجعل لكلام العماد نصيبًا من الصحة [4].

---

(١) النوادر السلطانية ص ٤٢ . .

(٢) الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٦٥٦.

(٣) انظر : ترجمته الضافية فى ٧ / ٣٤٠ وما بعدها .

(٤) انظر الحوار الدائر بين السلطان وكاتبه فى شأن الرواة المحلاه فى الفتح ص ٦٥٩ .

ثقافته الأدبية :

وفى مجال الأدب كان يحفظ حماسة أبى تمام وعددا من دواوين الشعراء كما كان له ذوق أدبى فى استحسان اللفظ الموافق للمعنى يشهد لذلك ما انتقده على كاتبه العماد الأصفهانى عندما وصف الشمس بقوله :

بدت بين أوراق الغصون كأنها
كرات نضار فى لجين مطرق

فعلق صلاح الدين قائلا : تشبيه الورق باللجين غير موافق فإن الورق أخضر .

فتدارك العماد خطأه وعدل البيت ليصير :

بدت بين أوراق الغصون كأنها
كرات نضار بالزمرد محدق [(١)].

وفى مجال التاريخ والأنساب يحدثنا ابن شداد عن مبلغ صلاح الدين فى هذا المجال فيقول : (كان حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيولهم ، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره) [(٢)].

وبالجملة فقد عده كاتبه الأديب العماد الأصفهانى أديبًا ، ناقدًا ، وأورد له اليونينى مقطوعة جيدة من نظمه [(٣)].

---

(١) انظر الروضتين .
(٢) النوادر السلطانية ص ٣٢.
(٣) الخريدة قسم شعراء الشام ص ٧٨ ..

٢ـ علاقته بالعلماء

ظل صلاح الدين حريصًا على الاستزادة من العلم ، معنيا بالتواصل المعرفي ، من خلال علاقة وثيقة تربطه بالعلماء تمثلت من ناحية في استشارة الفقهاء فيما يجد من أمور ، من أهم مظاهرها تردده في إبقاء ابن أبي عصرون على القضاء بعد أن كف بصره وما مدى شرعية ذلك ؟ فدارت عدة مراسلات بين السلطان والقاضي الفاضل ومن ذلك رسالة بعث بها السلطان إلى قاضيه يقول فيها : إن ابن أبي عصرون يقول : إن قضاء الأعمى جائز ، وإن الفقهاء قالوا : إنه غير جائز فتجتمع بالشيخ أبي طاهر ابن عوف الإسكندراني وتسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى ، هل يجوز أم لا ؟ (١).

وفي الجانب المقابل نجد حرص العلماء على تأليف الكتب وتقديمها إليه مثلما فعل قطب الدين النيسابوري حيث جمع له مسائل العقيدة في كتاب ، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر (٢). كما جمع ابن شداد له كتابًا في أخبار الجهاد يشتمل على نصوص وآداب (٣).

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٥٤/٣ ، ونكت الهيمان للصفدي صـ ١٨٥ وانظر الرد في مفرج الكروب لابن واصف ٦٧/٢ـ ٦٨ ، الروضتين ٢ / ٤٢٨.

(٢) النوادر السلطانية ص٢٦ .

(٣) انظر المصدر نفسه ٤٤.

كما عمل له شيث بن إبراهيم المعروف بالحاج القناوى كتابًا سماه (تهذيب ذهن الداعى فى إصلاح الرعية والراعى) [١] ، كما صنف له كذلك أبو الفضل عبد الرحمن كتابًا سماه (المنهج المسلوك فى سياسة الملوك) وهو مطبوع .

٣ـ اهتمام صلاح الدين بالعلماء

أولى السلطان صلاح الدين ، العلماء جل عنايته إذ عرف لهم قدرهم وأدرك منزلتهم وهو ما يظهر فى قوله لجنوده : لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضى الفاضل) ولعل هذه الكلمة كانت سببًا فى تيه العماد الأصفهانى الذى يشيد بقلمه (وقلمى من سيوفهم أضرى وأضرب ، ومن رماحهم أخطى وأخطب ومن سهامهم أنجى وأنجب ..) [٢].

وكان من آثار هذا العرفان كثرة نفقاته على العلم والعلماء حتى ذكر أبو شامة أنها تجاوزت مائتى ألف دينار وربما كانت ثلاثمائة ألف [٣]، كما وقف كثيرا من الضياع والقرى على طلاب الشريعة [٤].

---

(١) انظر معجم الأدباء ٢٦٤/٤ ونكتب الهيمان ١٦٩ .

(٢) الفتح القسى فى الفتح القدسى ٥٥ .

(٣) انظر الروضتين ١٣٨/٢ .

(٤) انظر المصدر السابق ٤٣ .

صلاح الدين وبناء المدارس

سنقتصر الكلام هنا على المدارس التى بناها صلاح الديـــن فـــى الشام وغيرها مما أسس على يد أسرته ، أما عن بنائه المدارس فـــى مصر فسيأتى الحديث عنها فى مبحث القضاء على الدولة الفاطميـــة ، كما وضعنا ملحقًا فى آخر الكتاب للإشارة إليها .

وقد أفرد النعيمى مصنفا ضخمًا فى الحديث عن مدارس الشــــام سماه "الدارس فى تاريخ المدارس " . وأهم هذه المدارس :

١ــ المدرسة الصلاحية [١].

وهى من إنشاء السلطان صلاح الدين ، ويقـــال : إن مؤسســـها الأول هو السلطان نور الدين زنكى ، وإن صلاح الدين هـــو الـــذى استكملها ، أما أشهر مدرسيها فهم : ــ

١ــ شمس الدين الكردى .

٢ــ مجد الدين عبد الله الكردى .

الصلاحية المالكية

وقيل : إنها إحدى المدارس الثلاث التى زارها ابن بطوطة وقـــد وقفها على المالكية ويقال : إن صلاح الدين قد أكمل بناءهـــا الـــذى

---

(١) انظر فى التعريف بها الأعلاق الخطيرة لابن شداد جـ٣ ٣٤٨ والدارس فى تاريخ المدارس ١ / ٣٣٣.

ابتداء نور الدين وقد درس بها ابن الحـــاجب والشـــيخ زيـــن الديـــن الزواوى [1].

الظاهـــريـــــة

وقد أنشأها الملك الظاهر غياث الدين غازى ابن السلطان صلاح الدين عام ٥٨٢هـــ .

ومن أشهر مدرسيها شمس الدين محمد بن معن الشيبانى[2] .

الشامية البرانية

وأنشأتها ست الشام زمرد بنت أيوب أخت صلاح الدين ، وهـــى التى قيل فيها : إن لها من الملوك المحارم ٣٥ ملكا .

وقد عهدت إلى شبل الدولة كافور الحسامى الذى كـــان يتولـــى خدمتها ببناء هذه المدرسة للشافعية عام ٥٨٢هـــ .

وقد قامت كذلك ببناء المدرسة الشامية الجوانية ، وقد وقفت على مدارسها أوقافا دارة . وأشهر من درس بها تقى الدين ابن الصلاح[3].

---

(١) انظر الأعلاق الخطيرة ٢ / ٢٥٣ ، النعيمى ٢ / ١٣ـــ١٤ .

(٢) انظر النعيمى ٣٤٣ .

(٣) انظر ابن شداد : ٢٣٧/٢ .

العزيـــــزية

وقد أسسها على الراجــــح الملـــك العزيـــز عثمــــان بـــن الســـلطان صلاح الدين وكانت فى الأصل دارا لأسامة بن منقذ ، فلمـــا حضـــر العزيز عقب وفاة والده أمر ببنائها .

وقيل : إن أول من أسسها الملك الأفضل نور الدين على ، ثـــم أتمها أخوه العزيز .

وكانت من أعيان مدارس دمشق فى زمنها [١] .

المدرسة الأسدية (مشتركة بين الأحناف والشافعية)

أنشأها أسد الدين شيركوه ، وذلك فيما قبل عام ٥٦٤هـــ [٢] .

وأشهر مدرسيها من الشافعية : عز الدين القرشى ت : ٦١٥هـــ .

ومن الأحناف تاج الدين الوزان ت ٦٤٥هـــ [٣].

المدرسة العذراوية

أنشأتها الست عذراء بنت نور الدولة شاهنشاه بن أيوب شـــــقيق صلاح الدين عام ٥٨٠هـــ وهى أخت عز الدين فرخشاه .

---

(١) النعيمى : ٣٨٣ ، وابن شداد : ٢٣٩ ، كرد على ٦ / ٨٦ ، أبو شامة الروضتين جـــ ٣ : ٢٣١، وانظر أيضًا مدارس دمشق فى العصر الأيوبى .

(٢) مدراس دمشق فى العصر الأيوبى د . حسن شميانى ٨٨ .

(٣) الإعلان الخطيرة ٢ / ٢٦٣ ، النعيمى ٤٧٣ .

وقد وقفتها على كل من الأحناف والشافعية .

وأشهر من درس بها من الشافعية فخر الدين بن عساكر ومحيى الدين الشركسى عام ٥٩٦هـ ـ ٦٦٨هـ .

أما الأحناف فمن أشهرهم عز الدين السخاوى وصدر الدين الحنفى[١] .

المدرسة التقوية [٢]

وقد ذكرها كرد على فى خططه مما يدل على أن يد البلى لم تنل منها ، وأما مؤسسها فهو الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب ابن أخى صلاح الدين وكان محبًا للعلم مكثرًا من إنشاء المدارس فى معظم إقطاعاته فبجانب هذه المدرسة أنشأ مدرستين بالفيوم وأخرى بالرها .

وأشهر مدرسى التقوية :

١ــ محيى الدين بن الزكى عام ٥٥٠هـ ــ ٥٩٨هـ .

٢ــ عماد الدين الخرستانى ٥٧٧هـ ــ ٦٦٣هـ . وكانت من أجود مدارس دمشق بنيت عام ٥٧٤هـ .

(١) النعيمى : ٤٧٥ .

(٢) انظر النعيمى ١ / ٢١٦ . وانظر : ابن شداد ٢ / ٢٣٥ .

قال ابن كثير : وله بحماة مدرسة هائلة وكذلك بدمشق مدرســــة مشهورة وعليها أوقاف كثيرة ، وكان أشـــهر مدرسـيها عـــدد مـــن آل الزكى وشمس الدين الصرخدى بدر الدين بن قاضى شهبة .

المدرسة الخاتونية الجوانية

وهى موقوفة على الحنفية

وقد أنشأتها خاتون بنت معين الدين آنر زوجة نور الديـــــن ثـــم صلاح الدين عام ٥٧٣هـــ .

وبَنَت للفقهاء والصوفية رباطا ، وأشهر مدرســـيها : البرهـــان الموفق ، وعز الدين السنجارى ، ووقفها أخوها سعد الدين .

وقال ابن كثير : (وهى واقفة الخاتونية الجوانية ، بنت بدمشـــق مدرسة لأصحاب أبى حنيفة وبنت للصوفية خانقاه ووقفت على هــــذه الأماكن أوقافا كثيرة) [1] .

---

(١) النعيمى : ٥٠٧ .

المبحث الثانى

صلاح الدين والدولة الفاطمية

التعريف بالفاطميين

ينتسب الفاطميون إلى فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ وذلك من خلال انتسابهم إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب .

وقد افترق الفاطميون عن الإمامية الإثنى عشرية فى إسماعيل هذا ، إذ يرى الفاطميون أن الإمامة ظلت باقية فى إسماعيل ثم انتقلت منه إلى ابنه محمد ثم إلى أئمة الستر المعروفين لديهم بدور الكتمان حتى وصلت إلى عبيد الله ـ عبد الله ـ الملقب بالمهدى مؤسس الدولة الفاطمية .

فى حين يرى الشيعة الإثنا عشرية أن الإمام جعفر الصادق قد صرف الإمامة عن ولده إسماعيل (1) وجعلها فى أخيه موسى الكاظم وظلت فى عقبه إلى الإمام الثانى عشر المختفى .

وقد اختلف النسابون والمؤرخون فى صحة نسب عبيد الله ـ عبد الله ـ المهدى فمنهم من يرى صحة نسبه وأنه يرجع إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، ومن أشهرهم المقريزى ،

(1) انظر اتعاظ الحنفا ١ /١٥ وما بعدها .

وابن الأثير ، ومنهم من يرى أن نسب عبيد الله هذا مدخـــول وأنـــه دعى فيه وعليه جرى الأكثرون ومن أشهرهم ابن حـــزم والبـــاقلانى والشريفين الرضى والمرتضى وقد أفاض المقريزى[1] فى هذا بمـــا لا مزيد عليه وإن ظل الخلاف حتى يومنا هذا ما بين مؤيد ومنكر وأيـــا ما كان الأمر فإنهم قد استطاعوا إقامة دولة ضخمة بسطت نفوذهـــا على معظم المنطقة .

البدايات الأولى للدولة

ظهر الفاطميون كأصحاب دولة فى منطقـــة المغـــرب العربـــى وبالتحديد فى مدينة القيروان ــ تونس ــ مـــن خـــلال جـــهود أبـــى عبد الله الشيعى الذى وجد فى قبائل كتامة ــ الذين استصحبوه عقـــب رحلة لأداء شعيرة الحج إلى بلادهم ــ خير معين له فى الدعوة إلـــى عبيد الله ــ عبد الله ــ المهدى خاصة وقد ســـبقه دعـــاة مخلصـــون مهدوا له الأرض وبذروا بذور الدعوة ، كما ساعده فى ذلك ضعـــف دولة الأغالبة التى كانت تحكم تونس وميل بعض وزرائها إلى الدعوة الفاطمية ، شرع أبو عبد الله الشيعى عندما تأكد له ولاء الكتاميين فى استدعاء عبيد الله بن الحسين بن أحمد الملقب بالمهدى واعتباره إمـــام

---

(١) انظر اتعاظ الحنفاء ص ١٧ .

الوقت والذى رحب بالقدوم إليه وصار ينتقل من بلد إلى بلد متخفياً مستعيناً بأنصاره حتى اعتقاله ، غير أن اعتقاله هذا لم يدم طويلاً فقد استطاع عبد الله الشيعى أن يخلصه من الأسر ، وبايعه ثم انتقل عبيد الله المهدى بعد ذلك إلى مدينة (رقادة) عام ٢٦٧هـ وصار يخطب له على المنابر وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين [1] وبذلك قامت الخلافة الفاطمية .

ثم أخذ المهدى فى التخلص من قائده أبى عبد الله الشيعى فقتله بعد عام واحد من قيام دولته ، فثار عليه الكتاميون إلا أنه استطاع هزيمتهم ثم اتجه إلى إخضاع قبائل المغرب ، قبائل منهاجه والقضاء على نفوذ الأدارسة ، ثم بنى له حاضرة بالقرب من القيروان عرفت بالمهدية عام ٣٠٥هـ وقال : (اليوم أمنت على الفاطميات) [2] يعنى بناته وقد توفى المهدى عام ٣٢٢هـ ليخلفه ولى عهده ابنه أبو القاسم ولقب بالقائم بأمر الله ، وفى عهده قام العديد من الثورات .

وقد خلفه بعد موته عام ٣٣٤هـ ابنه إسماعيل الملقب بالمنصور حيث أخفى موت أبيه سنة كاملة حتى لا يفت ذلك فى عضد أتباعه ،

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا ١ / ٩٢

(٢) مصر فى عصر الدولة الفاطمية محمد جمال سرور ١٧ ط النهضة المصرية .

وكللت جهوده بالظفر بالخوارج عليه بقيادة أبي يزيد مخلد الذي اتجه بولاءه إلى عبد الرحمن الناصر صاحب قرطبة .

ثم جاء الخليفة الرابع المعز لدين الله الذي عمل على توطيد خلافته بالتغلب على الثائرين عليه ومد نفوذه على سائر بلدان المغرب وفي عهده تم فتح مصر .

مصر والفاطميون

كانت مصر عند قيام الدولة الفاطمية في المغرب تخضع اسمًا للخليفة العباسي أما من الناحية الفعلية فكانت تحت ولاية الأخشيديين وقد نال منها الضعف ، حتى كانت محط أنظار الطامعين وعلى رأسهم الفاطميون منذ عهد عبيد الله المهدي الذي أرسل في غزوها عدة حملات باءت كلها بالفشل وكانت أولى هذه الحملات عام ٣٠١هـ حيث قضى عليها مؤنس الخادم القائد العباسي . ثم عاود عبيد الله المهدي الكرة فأرسل بعد أربع سنوات وبالتحديد في عام ٣٠٦هـ حملة أخرى للاستيلاء على مصر بقيادة ابنه أبي القاسم غير أنها منيت أيضًا بالهزيمة وعندما تولى أبو القاسم خلافة أبيه انتهج السياسة ذاتها فأرسل جيوشه عام ٣٢٤هـ وقد انضم إليها بعض المصريين غير أن الأخشيد قضى عليها .

ولم ينجح الفاطميون في الاستيلاء على مصر إلا في عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله حين أرسل قائده جوهر الصقلي ودخل

مصر عام ٣٥٨هـ بعد أن أمن المصريين وبين مقاصده في كتاب الأمان الذي وزعه عليهم ، كالعمل على استتباب الأمن وتوفير القوت وإصلاح العملة ، ونشر العدل وإصلاح الطرقات ، مع التعهد بتأمين المصريين على أنفسهم وأموالهم (١) ، وتم تأسيس مدينة القاهرة وبناء الجامع الأزهر .

وفي عام ٣٦٢هـ قدم المعز إلى الإسكندرية معلنا أنه لم يدخل مصر طمعًا في زيادة ملكه ولا لمال وإنما أراد إقامة الحق وحماية الحجاج والجهاد ضد الكفار وأن يختم حياته بالأعمال الصالحة ، وأن يعمل بما أمر به جده رسول الله ﷺ (٢) ، وصارت مصر عندئذ دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة وحلت القاهرة محل المنصورة وصارت عاصمة للدولة الفاطمية لتستمر قرابة المائتي عام ما بين مد فترة الخلفاء الأقوياء ، وجذر في فترة الوزراء الكبار لينتهي بها الأمر إلى الزوال على يد صلاح الدين .

---

(١) انظر في ذلك مصر في عصر الدولة الفاطمية صـ٣٣،٣٤ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ١٣٤ .

عقيدة الفاطميين فى رأى العلماء

إذا كان ثمة اختلاف فى صحة نسب الفاطميين من عدمه فإن هناك اتفاقًا يكاد يكون تاما بين الشيعة الإثنى عشرية والزيدية فضلاً عن أهل السنة على فساد المذهب الإسماعيلى وخروجه عن الإسلام فهو من المذاهب الغالية المنحرفة عن الجادة ، نرى ذلك واضحًا جليًا فى المحضر ـ البيان ـ الصادر عن مركز الخلافة العباسية والذى وقعه العديد من علماء السنة والشيعة وعلى رأسهم الشريفان الرضى والمرتضى والذى يقرر (أن هذا القائم بمصر ـ المعز لدين الله هو وسلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون ، وللإسلام جاحدون ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون) (١) .

ولم يكن هذا المحضر الرسمى هو الدامغ الوحيد للمذهب الفاطمى إذ قد سبقه ولحقه العديد من فتاوى الفقهاء وتقريرات المتكلمين وكلها تصمهم بالكفر ومن أمثلة ذلك قول أبى بكر البغدادى : (الذى صح عندى من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة) (٢) .

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير / النجوم الزاهرة تغرى بردى ٤ .

(٢) الفرق بين الفرق : ٢٩٤ .

وكذلك فعل القاضي عبد الجبار الهمذاني فقد وصفهم بالإلحاد [١] ، ثم تتبع حالهم واحدًا واحدًا وبيَّن أصلهم الدعي وأفعالهم الشنيعة من سب الأنبياء وقتل العلماء [٢] .

وقد أكثر القاضي عبد الجبار من ذكر دلائل كفرهم وشواهده ومن ذلك ما أوهمه المعز من (أنه كان غائبًا في السماء ، وأن الله رفعه إليه وكان يتحدث عما كان يأتيه أصحاب أخباره في حال استتاره ويوهم أن الله أطلعه على الغيوب .. وأن الله استنزاره) [٣].

ووضع الباقلاني مؤلفًا سماه (كشف الأسرار وهتك الأستار) في الرد على كتاب (البلاغ الأعظم والناموس الأكبر) لبعض قضاتهم وكان من رأي الباقلاني فيهم أنهم قوم (يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض) [٤] .

وكتاب الغزالي (فضائح الباطنية) معروف مشهور في هذا المجال .

---

(١) تثبيت دلائل النبوة صـ ٥٩٤ .

(٢) انظر المصدر نفسه ما بين ٥٩٤ ــ ٦١٤ .

(٣) تثبيت دلائل النبوة ٢ ــ ٦٠٦ .

(٤) انظر من عبر التاريخ في الكيد للإسلام للشيخ محمد زاهد الكوثري : صــ٥ .

ولم يكن تكفير الفاطميين أو العبيديين بقاصر على المتكلمين فقط وإنما كان أمرًا مطبقًا عليه من المحدثين والفقهاء والمؤرخين .

فهذا ابن كثير يقول عن أحد خلفائهم وهو الحاكم بأمر الله (كان يروم أن يدعى الألوهية كما ادعاها فرعون فكان قد أمر الرعية إذا ذكر الخطيب على المنبر اسمه أن يقوم الناس على أقدامهم صفوفًا إعظاما لذكره واحترامًا لاسمه) (١) .

وهو ما ذكره ابن الجوزى من قبل (ثم ازداد ظلم الحاكم حتى عنَّ له أن يدعى الربوبية) (٢) .

ولم يقتصر تكفير الفاطميين على البغداديين والشوام حيث الخلافة العباسية ، ومظنة تأثيرها على هؤلاء العلماء كما ذكر المقريزى فى قوله : ومما يدلك على كثرة الحمل عليهم أن الأخبار الشنيعة لا سيما التى فيها إخراجهم من ملة الإسلام لا تكاد تجدها إلا فى كتب المشارقه من البغداديين والشاميين) (٣) .

إذ إن كتب المغاربة الذين كانوا تحت حكم الفاطميين ملأى بتكفيرهم فعلى سبيل المثال نجد القاضى عياض يروى لنا العديد من فتاوى العلماء المالكية فى القيروان وغيرها ومقاتلتهم بل إنهم

---

(١) البداية والنهاية .

(٢) المنتظم ٧ / ٢٩٨ .

(٣) اتعاظ الحنفا ٣ / ٣٤٦ .

ليحاربونهم تحت إمرة الخوارج لكونهم (من أهل القبلـــة) بخـــلاف هؤلاء الفاطميين الذين ثبت عندهم كفرهم وخروجهم من الملة ومـــن صور ذلك :

١ــ نقل القاضى عياض إجماع أهل القيروان (أن حـــال بنـــى عبيد حال المرتدين والزنادقة) (١) .

٢ــ وصف العبدرى لهم بأنهم (جاهروا بكل كفر وظاهروا بكل إلحاد) (٢) .

ويصفهم فى موضع آخر بأنهم (أعداء ملة الرسول ﷺ) (٣) .
ومبالغة بكفرهم لم يـــرض العلمـــاء أن يعـــاملوهم معاملـــة اليـــهود والنصارى فلم يرخصوا للمسلم المكره على الدخول فى دعوتهم مهما أكره على ذلك ولم يجدوا له ما يبيح له ذلك .

فقد سئل محمد الكورانى عن من أكرهه بنو عبيد على الدخـــول فى دعوتهم أو يقتل فقال : (يختار القتل) (٤) .

---

(١) ترتيب المدارك ٢ / ٢٩٢ .
(٢) رحلة العبدرى صـــ ٣٢٠ .
(٣)المصدر نفسه .
(٤) ترتيب المدارك ٢ / ٢٩١ .

وقيل أيضًا : (لا يعزر أحد بالإكراه على الدخول فى مذهبهم بخلاف سائر أنواع الكفار) [١] وهو ما يظهر فى قول عبد القاهر البغدادى من أن (ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى ، بل أعظم من الدهرية وسائر أصناف الكفر) [٢] .

---

(١) المصدر نفسه صـ ٢٩٢ .

(٢) الفرق بين الفرق صـ ٢٨٢ .

عقيدة الفاطميين فى نظر الشيعة

أنكرت الشيعة فى مجموعها – زيدية وإثنا عشرية – على الفاطميين مذهبهم ووصفوه بالغلو ووضعوا المصنفات تلو المصنفات فى رد عقيدتهم وبيان زيغها فنجد النوبختى على سبيل المثال يذكر فى كتابه " فرق الشيعة " كيف أن أتباع أبى الخطاب الذى لعنه جعفر الصادق وتبرأ منه وحاول إبعاد ابنه إسماعيل ثم حفيده من بعده من الوقوع فى براثنه وذهبوا إلى القول بأن روح جعفر الصادق قد تحولت فى روح محمد بن إسماعيل بعد مرورها بعض الوقت فى روح ابن الخطاب (١) .

فإذا ما انتقلنا إلى الزيدية وجدنا محمد بن الحسن الديلمى يذكر عشرين وجهًا لتكفيرهم آخرها " : أنهم يكفرون الأمة المسلمة بأجمعها ويسمونها الأمة المنكوسة – أى عن رشدها – ويسمون الأئمة والعلماء والفضلاء من لدن النبى ﷺ إلى يومنا بالطواغيت والأصنام ويتأولون على هذا جميع آيات القرآن (٢) .

وهو ما ذهب إليه المرتضى من أئمة الزيدية (٣)

---

(١) انظر فرق الشيعة صـ ٨٠ – ٨١ .

(٢) بيان مذهب الباطنية وبطلانه ٩٠ درقيته .

(٣) انظر المنية والأمل .

الخلاصة فى عقيدة الفاطميين

بداية نحن لا نحب أن نكفر أحدًا أو أن نخرجـــه مـــن حظـــيرة الإسلام . وفى الوقت ذاته فإن المداهنة فى الحكم عندما يكون الكفـــر بواحاً تكاد تكون كفرًا .

وقد رأينا فيما سبق آراء العلماء من مختلف المذاهب بما فيـــــها الشيعة أنفسهم ، والمدارس الأخرى وكلها تذهب إلى أن آراء القـــــوم بينها وبين الإسلام بون عظيم .

غير أن الاستناد إلى آراء العلماء المخالفين لهم دون النظر إلـــى آراء القوم المدونة فى مصادرهم الأصلية يعد مـــن قبيـــل الظـــن . ولا يتفق مع آداب البحث .

لذا يحتم الواجب العلمى أولاً وقبل كل شىء النظـــر إلـــى آراء القوم فى مصادرهم .

ونكتفى هنا فى هذا المقام بتأمل كتاب (أساس التأويل) للقاضى ابن حيون وهو من أشهر دعاتهم لنخرج من هذا النظر مطمئنين إلـــى أن من يقول بهذه الآراء والتأويلات ليس له فى الإسلام نصيب ، وإن ادعى الإسلام وزعم الإيمان .

ومن أبرز هذه التأويلات التى تتنافى مع المعلـــوم مـــن الديـــن بالضرورة ، قوله فى :

١ــ شهادة التوحيد :

يقول فيها " شهادة أن لا إله إلا الله قد اشتملت على توحيـــد الله تعالى ذكره والإقرار برسوله وأقمة دينه وحدوده وأوجبت طاعتـــهم وولايتهم وقبول أمرهم) !! [١].

٢ــ فى قوله تعالى **(ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابًــا صعدًا)** [٢]. فقال " فذكر سبحانه هنا ولى أمرهم من أعــرض عنــه صار إلى عذاب الله وسماه ذكرا أى أقامه لذكره فسمى باسمه " [٣] .

٣ــ فى قوله تعالى : **(ألقوه فى غيابت الجب يلتقطـــه بعــض السيارة إن كنتم فاعلين)** قال : " ألقوه إلى رؤساء أهـــل الظـــاهر فيكون ممنوعًا مما رمتم ولا تفسدوا عليه العلم ويلتقط بعض كلامكـــم بعض المختلفين فى الظاهر " [٤] .

٤ــ وفى قوله تعالى : **(قال رب بما أنعمت على فلـــن أكـــون ظهيرًا للمجرمين)** يقول داعى الدعاة يعنى بقوله " رب " إمام زمانه المستغفر له حيث اعتقد الهجرة إليه .. [٥] .

---

(١) أساس التأويل : ٣٦ .

(٢) الجن : ١٧ .

(٣) نفسه : ٤٠ .

(٤) نفسه : ١٣٧ .

(٥) نفسه : ١٨٧ .

٥ـ وفى قوله جل شأنه : **﴿ ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾** قال : أى لا نفاتح أحدًا حتى ينتهى هؤلاء الذين استجابوا لهؤلاء الدعاة إلى غاية ما يجب لهم فنورد هؤلاء عليهم حينئذ فيسقونهم أى يفاتحونها (١) .

٦ـ فى قوله : **﴿ ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم ﴾** يقول فى تفسيرها أو فى تحريفها بتعبير أدق : " يعنى الأئمة السبعة من بعده من ذريته الذين ينتهى الفضل إلى السابع منهم " والقرآن العظيم " يعنى أساسه الذى أقامه (٢) .

٧ـ وفى قوله : **﴿ فصل لربك وانحر ﴾** نراه فسر النحر بقوله : " أى خذ عهد الأساسية على أساسك ونصبه للبيان تتصل ذريتك الباطنة ويكثر المستجيبون لدعوتك .. " (٣) .

٨ـ وفى قوله جل شأنه : **﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه .. ﴾** يقول : " فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يمسك نفسه معهم ولا يفارقهم ولا تعد عيناه عنهم وهم الأئمة صلى الله عليهم الذين قصرت معرفة أهل الشريعة عنهم ولم يعرفوا منازلهم " (٤) .

---

(١) أساس التأويل : ١٨٧ .

(٢) نفسه : ٣٣٣ .

(٣) نفسه : ٣٤٧ .

(٤) نفسه : ٣٦٤ .

الفاطميون وفرض عقيدتهم

حاول الفاطميون بشتى الطرق وباختلاف الوسائل فرض مذهبهم على المصريين وصبغهم به .

فهم يعتمدون الترغيب حتى إذا لم يسعفهم لجأوا إلى العنف والقسوة ، فها هو المعز على سبيل المثال يرسل إلى أحد علماء مصر مائة مثقال ذهب ورسالة يستميله فيها للدخول فى دعوته .

فيرد الشيخ صلته عليه ويحرق كتابه أمام من أتى به [1] .

ولا شك أن هناك بعض الطامعين قد ضعفوا أمام هذا الإغراء وكاتبوا المعز ، وزينوا له القدوم إلى مصر ، لكنهم كانوا قلة لا تمثل سوى تسلقها وانتهازيتها ، أما سائر المصريين فقد حافظوا على عقيدتهم وتمسكوا بها على الرغم من القسوة والعنف الذى واجههم فى سبيل الاحتفاظ بعقيدتهم ، ويصور لنا المقريزى ــ وقد كان من المتعاطفين معهم ــ ذلك فيقول : (فشاع هذا المذهب فى الأقطار ودعى الكافة إليه واستباح الدماء بمخالفته فاشتد النكير وكثر الصائح عليهم من كل ناحية حتى أخرجوهم عن الإسلام ونفوهم عن الملة) [2] .

---

(١) انظر ومضات فكر ، للشيخ محمد الفاضل بن عاشور .

(٢) اتعاظ الحنفا ٣ / ٣٤٥ .

صمود المصريين

لم تفلح محاولات الشيعة الإسماعيلية (الفاطميين) في تغيير هوية الشعب المصرى القائمة على المذهب السنى على الرغم من قسوتها وشدتها والتى تظهر من خلال المنشور الذى أذاعه الحاكم ويتعهد فيه بالعدول عن طريق أسلافه والذى يقول فيه : (مضى الأمس بما فيه وأتى اليوم بما يقتضيه ، يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر ويعرض عما انقضى فلا يذكر ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت عليه في الأيام الخالية أيام أسلافنا) [1] .

وهذا المنشور أو البيان كاف وواضح الدلالة على ما كان يلقاه المصريون من عنت وإرهاق وهم فى ذلك صابرون صامدون متمسكون بدينهم فشهد لهم بذلك العلماء والمؤرخون فهذا عبد القاهر البغدادى يصفهم بقوله : (وأهل مصر ثابتون على السنة) [2] .

وقد اعترف الشيعة أنفسهم بصلابة المصريين وعدم اقتناعهم بالمذهب على الرغم من المحاولات المستميتة التى كان يقوم بها داعى الدعاة النعمان بن حيون حيث يقول : .. لما قلدونى القضاء بالمنصورية رأيت قومًا لم يصلوا إلى الدعوة ورأيت فيهم مقاربة

(١) الروضتين : ٢ ، تاريخ ابن خلدون ٤ / ٦٠ .

(٢) الفرق بين الفرق : ٢٩١ .

ورجوت أن يهديهم الله أن فتح فى ذلك لعباده فلما جاء من ذلك لما هيأه لخلقه من فتح باب رحمته لعباده تخلفوا ، ورجوت أن يحاسبوا أنفسهم ، ورمزت لهم وطارحتهم فلم أرهم يقبلون على شيء فواجهتهم وكلمتهم واحتججت عليهم وناظرتهم حتى قطعتهم فلم يزدهم ذلك : إلا تماديا فى الغر وإصرارًا على الجهل ، فثقل علىّ أمرهم وكرهت جانبهم وأبغضت رؤيتهم وسئمت صحبتهم فأردت الاستبدال بهم فرفعت ذلك إلى المعز فوقع إلى فيهم : (أبقهم على خدمتك فإن يفئ الله بهم ، فسعادة ساقها الله إليهم وثواب صير إليك بما بذلته لهم من النصيحة لهم وإلا فلا يمنعك جهل الحمرة المستنفرة من الانتفاع بها فى بعض مصالحك ويكونون بعد كما قال الله عز وجل : ﴿عاملة ناصبة * تصلى نارًا حامية﴾ [1]) . [2]

ويقول فى موضع آخر متحدثًا عن كتابه (دعائم الإسلام) (فقد قدمنا للمستجيبين ما يلزمهم من ذلك رجاء إصلاحهم وتقويمهم فقرأنا ذلك عليهم وأنجنا استئنافه لمن رغب فيه منهم ووضعناه بيننا لهم وأبحنا قراءته لمن أحب ذلك من جميعهم فأخذ منه وانتفع به بعضهم وهم قليلون) [3] .

---

(١) الغاشية : ٣-٤.

(٢) أدب مصر الفاطمية : ١٣٢ .

(٣) أساس التأويل : ٢٤ ــ ٢٦ .

أما عن كتابه (حدود المعرفة) فلم يكن خطه بأفضل من سابقيه إذ يقول (وكان سبيل القوم فيهم سبيلهم فيما قبله من القبول والرغبة والإعراض والزهادة) [١] .

وهكذا فشلت الدعوة الفاطمية فى التسلل إلى عقيدة المصريين إذ وقفوا لها بالمرصاد (فأنكر الناس هذا المذهب لما يشمل عليه مما لم يعرف عند سلف الأمة وتابعيهم ولما فيه من مخالفة الشرائع) [٢] .

هكذا يعلل المقريزى مقاومة ورفض المصريين لهذا المذهب والذى استمروا فى رفضه إلى آخر يوم من أيام الدولة الفاطمية فعندما أراد صلاح الدين الإجهاز على الدولة الفاطمية استفتى الفقهاء فأفتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد من انحلال العقيدة وفساد الاعتقاد وكثرة الوقوع فى الصحابة [٣] .

ومن الطرائف التى لجأ إليها المصريون فى محاربتهم لهذا المذهب ما وجده العزيز عند صعوده المنبر إذ وجد رقعة مكتوب فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة

---

(١) أساس التأويل : ٢٤ ـ ٢٦ .
(٢) اتعاظ الحنفا ٣ / ٣٤٥ .
(٣) نفسه : ٣٣٠ .

إن كنت أعطيت علم الغيب   فقل لنا كاتب البطاقة

وقد قرر كثير من الباحثين هذه السياسة القائمة علـــى التعســف والإرهاب .

فالدكتور محمد كامل حسين ــ وهو من المتخصصين فى دراسة المذهب الإسماعيلى ــ يقول : (لا نستطيع أن ننكــر أن الفــاطميين كانوا يستعملون وسائل الإرهاب لمخـــالفى عقيدتـــهم) [(١)] . ويقــول أيضًا : (ففى العصر الأول عندما كان الخلفاء الفاطميون أقوياء كــان اضطهاد أهل السنة أمرًا طبيعيا) [(٢)] .

وقد أورد لنا الدكتور محمد بركات البيلى صوراً عديدة لسياســـة القتل التى اتبعها الفاطميون فى مواجهة أهل السنة [(٣)] .

ومن المفارقات التى توضح موقف الفاطميين مــــن خصومـــهم الذين كانوا لا يملكون إلا فكرهم ورأيهم مـــا حـــدث مـــع القــاضى أبى بكر النابلسى حيث كان كثير الذم لهم والمنافرة ، وحين ثار بعض القرامطة ــ وهم أخوان لهم فى المذهـــب ــ وقـــاتلوهم وكـــادوا أن

---

(١) أدب مصر الفاطمية : ١٣١ .

(٢) أدب مصر الفاطمية : ١٣١ .

(٣) التشيع فى بلاد المغرب الإسلامى .

ينتصروا عليهم ويدخلوا القاهرة ، فلما انكسروا فى النهاية وجئ بـهم أسارى والشيخ فى جملة من أخذوا سلخ حيا ، أما الثائرون المقـاتلون فكان نصيبهم هو العتاب فقط مع أعادتهم سالمين إلى ديارهم (١) .

(١) انظر : دلائل النبوة ٢ / ٦٠٨ .

القضاء على الدولة الفاطمية

ما أن استوزر صلاح الدين للعاضد آخر خلفاء بنى عبيد ، حتـى أدرك بثاقب نظره مآل الدولة التى يحكمها من قبل اثنين متنـاقضى المذهب فالخليفة العاضد يوليه الوزارة وهو فى الوقت ذاتـه يحكـم نيابة عن الملك العادل نور الدين ويستشعر رغبـة المصريين فـى عودة بلادهم إلى السنة كما كانت من قبل .

وتسلح صلاح الدين أمام هذا التناقض السياسى بـالحلم والأنـاة والحصافة .

ولما كان الدعاء فى خطبة الجمعة هو علامة الولاء آثر صـلاح الدين الخطبة لكليهما الخليفة العاضد ، ثم الملك العادل حتى يسـتتب له الأمر ، وينعم بالهدوء وليعمل عمله بعد ذلك فى اسـتعادة مصـر لمذهبها السنى بالتدريج ووفق مراحل يتلو بعضها بعضـا ، وكـانت أولى هذه المراحل الإقبال نحو الشعب المصرى ومخاطبته من خـلال تحسين أحواله المادية والمعيشية دون أن يفرط فى حق جنوده الذيـن آزروه وشدوا من ساعده فأخذ يوزع الأموال التى كانت فى حـوزة عمه أسد الدين شيركوه مضافًا إليها ما استخرجه من الخليفة العـاضد على كلتى الطائفتين وفى ذلك يقول ابن واصل :

" ثم شرع صلاح الدين في استمالة قلوب الناس إليه ، ويبذل من الأموال ما كان أسد الدين جمعه ، وطلب من العاضد شيئًا يخرجه فلم يمكنه ومنعه فمال الناس إليه وأحبوه " (١) .

ثم كانت الخطوة الثانية والهامة والموجهة أيضًا إلى الشعب والموقظة إياه ليأخذ أهبته واستعداده وأعنى ملاحظة وملاحقة الحرس القديم رجال القصر الفاطمى الذين أضيروا بعد أن ولى عصرهم وذهب تحكمهم أدراج الرياح ، وصدقت فراسة صلاح الدين فى سوء ظنه برجال القصر الذين قام أحدهم وهو جوهر مؤتمن الخلافة بمكاتبة الصليبيين يغريهم بصلاح الدين مخالفًا فى ذلك رغبة سيده العاضد الذى رضى عن طيب خاطر باستيلاء المسلمين من جند نور الدين ، على الوقوع فى براثن الصليبيين فقد سبق أن حذره شاور من مغبة الاستعانة بنور الدين فرد عليه بقوله " أين استدعائى الغز (أى الترك) من المسلمين لنصرة الإسلام من استدعائك الفرنج للإعانة على المسلمين "

فأجابه شاور " والله لئن يثبت لهم رجل بديار مصر لا كانت عاقبته وخيمة إلا عليك . فكان رده : رضيت أن تكون إسلامية وأكون فداء المسلمين " (٢) .

---

(١) مفرج الكروب ١ / ١٧٤ .

(٢) اتعاظ الحنفا ٣ / ٢٩٤ .

وكان هذا هو رأى الكامل بن شاور فى مواجهة أبيه عندما عزم على قتل أسد الدين شيركوه وكبار قواده فرفض فكرة أبيه وهدده بإظهار دخيلة نفسه فخوفه أبوه مغبة ذلك. إلا إن الابن العاقل قال له. ولأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج)[١].

ذهبت كل هذه المعانى عن مؤتمن الخلافة ولم يبق فى مخيلته سوى مصلحته الشخصية فعرض عليهم قصد البلاد ليخرج إليهم صلاح الدين بعساكره ، فيثور عند ذلك بصعيد مصر وطوائف العسكر ويصير صلاح الدين محصوراً بين الفرنج وبينهم فيأخذونه ويقتلون من معه [٢] غير أن القدر كان له بالمرصاد ووقف صلاح الدين على رسالته .

وهنا ظهرت حنكة صلاح الدين حيث كتم الخبر مدة من الزمن حتى اغتر مؤتمن الخلافة بإعراض صلاح الدين عنه فترك الاحتياط وزال عنه الحذر وسرعان ما لقى حتفه بيد أعوان صلاح الدين حتى إذا ما قام أتباعه الذين يقدرون بخمسين ألفا بمحاولة الانتقام له على

---

(١) المصدر السابق .

(٢) كانت الرسالة فى خف جديد فى يد رجل رث الهيئة فارتاب منه أحد رجال صلاح الدين لما رآه من سوء حاله وحسن الخف فأخذهما منه وفتحهما فوجد فيهما الرسالة وإذا فيها مكاتبة الصليبيين بالقدوم إلى مصر انظر الروضتين ٢/ ١٣٠ وما بعدها .

عادتهم فى الخروج على الوزراء ، فوجــدوا صــلاح الديــن لــهم بالمرصاد فقضى عليهم ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك ، واستمر صــلاح الدين على حذره وترقبه فلم يجازف بالخروج لملاقاة الصليبيين عنــد محاصرتهم لدمياط وبعث إلى نور الدين يستنجده ويعلمه بعدم قدرتــه على الخروج خوفاً من تألب فلول الفاطميين ، وقد أدرك نور الديــن حرج قائده فأنجده بالجنود إرسالاً ولم يكتف بذلك وإنما لجأ لوســيلة أخرى يضغط بها على المعتدين فخرج بنفسه كما يقول المقريــزى ، إلى بلاد الإفرنج بالساحل وأغار عليها واستباحها [١] .

واستمر صلاح الدين فى خطته الرامية إلى تعديل مسار الدولــة وإعادتها مرة ثانية إلى عهدها السنى وكانت الخطوة الثالثة فى هــذا الطريق هى :

إنشاء المدارس :

جريا على السنة الحميدة التى سنها الوزير نظام الملك فى عــهد الملك ملكشاه وتبعه عليها الملك العادل نور الدين ، واقتفــى أثرهمــا صلاح الدين فكانت من أوائل أعماله بناء المدارس لما فى ذلك مــن استنفار لجموع الشعب الذى حافظ على عقيدته طيلــة قرنيــن مــن الزمان ، فالغرض الأساسى من إنشاء المــدارس فــى هــذا العــهد

---

(١) اتعاظ الحنفا ٣ / ٣١٥ .

الصلاحي المبكر هو الاتجاه إلى الشعب ودعوته إلى الالتفاف حـــول صلاح الدين في مواجهـــة حاشـــية القصـــر فأنشـــئت أول مدرســـة للشافعية في مصر عام ٥٦٦هـ " ولم يكن قبل ذلك بديـــار مصـــر مدرسة لأحد من الفقهاء فإن المدرسة كانت إسماعيلية " (١) .

وما يذكره المقريزي في هذا الشأن غير دقيق حيث سبق للوزيـر السني ابن سلار أن أنشأ مدرسة سنية في الإسكندرية عام ٥٤٦هـــ في حين كانت المدرسة الأولى التي أنشأها صلاح الديـــن للشـــافعية والمسماة بالمدرسة الناصرية ـــ نسبة إليه ثم عرفت بعد ذلك بمدرسة ابن زين التجار نسبة لأحد أساتذة الفقه الشافعي الذي ظل يدرس بـــها مدة طويلة .

أما المدرسة الثانية التي أنشأها صلاح الدين فكانت فـــي نفـــس العام أيضًا ، وكانت للمالكية وعرفت بالمدرسة القمحية لأن رواتـــب المدرسين بها كانت قمحًا يغل من الغيـــوم ، أمـــا المدرســـة التـــي خصصت للأحناف فعرفت بالمدرسة الســـيوفية وكـــانت فـــي عـــام ٥٧٢هـــ وسميت بذلك الاسم لأن تجارة السيوف كانت تجاهها .

واستمر صلاح الدين في تشـــييد المـــدارس فأنشـــأ المدرســـة الصلاحية بجوار ضريح الإمام الشافعي وقد أدخلت هذه المدرسة فـــي

(١) اتعاظ الحنفا : ٣ / ٣١٩ .

المسجد بعد ذلك ، كما أنشأ كذلك مدرسة أخرى بجوار المشهد الحسيني ، ولم يكن إنشاء المدارس وقفًا على صلاح الدين وحده وإنما تعداه إلى أسرته فقد أنشأ تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ابن أخ صلاح الدين) مدرسة منازل العز بالفسطاط لتدريب الفقه الشافعي.

كما أنشأ الكامل بن الملك العادل مدرسة بين القصرين لتدريس الحديث الشريف وهي واقعة الآن بالقرب من جامع قلاوون [١] .

عزل القضاة :

وكانت الخطوة التالية في التمهيد لإنهاء الدولة الفاطمية هي عزل القضاة الإسماعيليين وإحلال قضاة أهل السنة محلهم ، وكانت البداية الاعتماد على قضاة الشافعية فاشتهر – كما يقول المقريزي – مذهب الشافعي ومذهب مالك بديار مصر وتظاهر الناس بهما واختفى مذهب الشيعة من الإمامية والإسماعيلية وبطل من حينئذ مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره [٢] .

---

(١) انظر تفصيل المدارس التي أنشأها الأيوبيون في مصر فانظر الروضتين ٢ /١٨٠ ، خطط المقريزي وكذلك مدارس القاهرة لعبد الله فكري ، أما مدارس الشام فانظر الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي .

(٢) اتعاظ الحنفا ٣/٣٢٠ .

إلغاء بدعة (حى على خير العمل)

ثم محك الاختبار وجس النبض الذى تمثل فى إلغاء الزيادة التى وضعت فى الآذان : (حى على خير العمل ، محمد وعلى خير البشر) وأمر بالدعاء للخلفاء الراشدين .

نهاية الدولة الفاطمية

وفى العام التالى لإنشاء المدارس وتغير القضاء والقضاء على البدع زالت دولة بنى عبيد فى عام ٥٦٧هـ بقطع الخطبة للعاضد وتحويلها للخليفة العباسى المستضئ بالله ، ويلاحظ أن الملك العادل كثيرًا ما راسل صلاح الدين فى التعجيل بالخطبة للخليفة العباسى وقطعها عن العاضد غير أن صلاح الدين كان بعيد النظر فى ذلك فلم يشأ أن يجازف قبل أن يعد للأمر عدته ويهيء له سبل النفاذ متخذًا من الأسباب المعينة لذلك مطية لهذا التغيير وقد صادف ذلك وصول والده نجم الدين إلى مصر حاملاً رسالة فى ذلك ، منها " وهذا أمر تجب المبادرة إليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لا سيما وإمام الوقت بقصد الخليفة العباسى ـــ متطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنياته)

[1] ويصف ابن واصل منقبة البيت الأيوبى وعلى رأسه صلاح الدين بقوله : " وطهروا الديار المصرية من بدع الباطنية وشيدوا بها أركان الملة الحنفية " [2] ، وعندئذ خطا صلاح الدين خطوته الأخيرة فى إنزال الفاطميين عن عرشهم وخطب للخليفة العباسى المستضئ بنور الله عام ٥٦٧هـ وأسقط العاضد من الخطبة الذى سرعان ما توفى .

وقد اختلفت الروايات التاريخية فى سبب وفاة العاضد فمنها من يرجع الوفاة إلى حزن العاضد عندما علم بالخطبة لبنى العباس ، ومنها من يذهب إلى أنه كان مريضًا بالفعل وأن أهله لم يعلموه بذلك وأن صلاح الدين تمنى لو تأخر بعض الشىء فى إسقاط اسمه من الخطبة حتى وفاته .

(١) الروضتين فى أخبار الدولتين ٢ / ١٤٨ . وانظر أيضًا النجوم الزاهرة ٥ / ٦٣ .
(٢) مفرج الكروب : المقدمة .

المبحث الثالث

صور من جهاد صلاح الدين ومعاركه

المتأمل لتاريخ صلاح الدين العسكري يلاحظ تعدد الجهات التي خاض فيها حروبه وتعددت فيها معاركه ، والتي بدأت بقدومه مصر جنديًا مغوارًا تحت إمرة عمه أسد الدين شيركوه خاصة في مسيره الثاني إلى مصر سنة ٥٦٢هـ وكان أسد الدين محقًا في إلحاحه على صلاح الدين بالذهاب معه بل إنه قد استعدى عليه نور الدين قائلاً له (لابد من سيره معي فترسم له) يقول صلاح الدين (فأمرني نور الدين وأنا أستقيله) [(١)] .

وكان أول عمل استقل به صلاح الدين هو الدفاع عن الإسكندرية فقد حاصره الفاطميون والصليبيون واشتد عليه الحصار ونجح في الدفاع عن المدينة ، ولم يكن معه سوى ألف رجل حتى (قدم شيركوه من الصعيد وعندئذ تشجع الناس وقويت نفوسهم وصمدوا للقتال نحو ٧٥ يومًا) وعندئذ أدرك آموري أنه لا فائدة من مواصلة القتال فدارت المفاوضات بشأن الصلح وبذل الفاطميون والصليبيون لشيركوه خمسين ألف دينار فأجابهم إلى ذلك بشرط ألا يقيم الصليبيون بالبلاد فوافقوا على ذلك[(٢)] .

وهذه صور من معاركه :

---

(١) انظر مفرج الكروب : ١٥٩ .

(١) نفسه . وانظر النوادر السلطانية ص ٦٥ والروضتين .

معاركه فى تثبيت المذهب السنى وقضاؤه على النفوذ الفاطمى :

لم يسترح الفاطميون لاستقرار الأمر لصلاح الدين ومن وراءه نور الدين بمصر ، فقدح أحد قواد الخليفة العاضد وهو جوهر مؤتمن الخلافة [١] زناد فكره وسار على نهج سلفه شاور فى الاستعانة بالصليبيين ودعوتهم للقدوم إلى مصر حتى إذا ما خرج صلاح الدين لملاقاتهم انقض عليه الجند الفاطمى ، وأدرك صلاح الدين ما يبيت له فأخذ الخائن وقتله [٢] ، وعندئذ تحرك الجند الفاطمى ومعظمه من السودانيين ، وكان عددهم يزيد على خمسين ألفًا ووقعت الدائرة عليهم فى منطقة (بين القصرين) وفروا إلى السودان وأخرب صلاح الدين محلتهم بباب زويلة ، وكان ذلك عام ٥٦٤هـ [٣] .

وقد نظم الشعراء فى ذلك قصائد تمدح صلاح الدين وتسجل نصره ومن ذلك قول العماد [٤] :

---

(١) يصفه ابن واصل فى مفرج الكروب بأنه كان متحكمًا فى القصر ، ص ١٧٥ .

(٢) انظر القصة من هذه الدراسة وتفاصيلها فى ص ١٧٥ من مفرج الكروب .

(٣) انظر فى ذلك الروضتين ، ج٢ ، ص ١٣٠ وما بعدها .

(٤) مفرج الكروب ص ١٧٨ .

وما أصيبوا إلا بطـــــــــل فكيف لو أمطروا بوابــل
والسود بالبيض قد أبيحوا فهى بواد بهم نــــــوازل
مؤتمن القوم كان حتــــــى غالته من شره غوائـــــل

أما المعركة الثانية مع فلول الفاطميين فكانت فى عام ٥٦٩هـــــ وقد تزعمهم جماعة من الكتَّاب والشعراء على رأسهم عمارة اليمنــى وعبد الصمد الكاتب مع شيعة القصر أرادوا إعادة الدولـــة الفاطميــة وكاتبوا الفرنج من صقلية والشام ووعدوهم ببذل الأموال وعينوا مــن يقوم بالأمر منهم فحددوا الخليفة والوزيــــر ، إلا أن الله كــان لـــهم بالمرصاد فأظهر دخيلة نفوسهم ، فاستباحهم صلاح الدين [1] .

وقد سجل صلاح الدين هذه الواقعة فى كتاب له صادف وصولــه موت نور الدين يقول له فيه (ولم نزل نتوسم من جند مصر ، ومــن أهل القصر ، بعدما أزال الله من بدعتهم ونقض من عرى دولتـــهم ، وخفض من مرفوع كلمتهم ، أنهم أعــداء وإن قعــدت بـــهم الأيــام وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام) [2] .

---

(١) انظر مفرج الكروب ص ٢٤٣ .
(٢) مفرج الكروب ص ١٤٨ .

معاركه مع الصليبيين فى مصر

ما إن استقر صلاح الدين فى مصر وآل إليه أمرها ، حتى أيقـن الصليبيون حرج موقفهم وأنه سيحاط بهم ، وهو ما صوره ابن شـداد بقوله (ولما علم الإفرنج .. ما تم للسلطان من استقامة الأمور فـــى الديار المصرية ، خافوا أن يملك بلادهم ويخـــرب ديـــارهم ويقلـــع آثارهم لما حدث له من القوة والملك) [1] .

وهنا تواطأ صليبيو الشام وسائر نصارى أوروبا وهجموا علـــى دمياط وحاصروها فى عام ٥٦٥هـ .

وهنا تجلت حصافة صلاح الدين وحنكته فلم يشأ الذهاب بنفســه لمجالدة الصليبيين خشية أن يثور الفاطميون عليه ، وفى الوقت ذاتــه حصن دمياط وأرسل إليها خيرة جنده وعلى رأسهم ابن أخيــه تقــى الدين وخاله شهاب الدين ، وتابع إرسال المــؤن والذخــائر إليــهم ، فضلاً عن مناوشتهم بالغارة تلو الغارة .

وفى هذا يقول أبو شامة : " ولما علم صلاح الدين قصد العـــدو دمياط أنفذ إلى البلد ، وأودعه مـــن الرجـــال والأبطـــال والفرســـان والميرة والآلات ما آمن معه عليــــه ، ووعـــد المقيميـــن بـــإمدادهم بالعساكر والآلات ، وإزعاج العدو عنهم إن نزل إليهم " .

---

(١) النوادر السلطانية ص ٧١ .

مع مخاطبة الملك العادل نور الدين الذي اغتم بدوره لما نـــزل بالمسلمين فأرهق الصليبيين بالشام ونازلهم حتى لا يتيح لهم فرصـــة مساعدة نصارى الروم في محاصرة المدينة .

وقد نتج عن استبسال أهل دمياط من جهة ومناوشة صلاح الدين من جهة أخرى ، وإرهاق نور الديـــن مـــن جهـــة ثالثـــة أن آيـــس الصليبيون من دخول دمياط وعادوا خزايا نادمين وهو ما عبر عنـــه ابن شداد بقوله : حتى بان للإفرنج الخسران وظـــهر علـــى الكفـــر الإيمان ورأوا أنهم ينجون برؤسهم ويسلمون بنفسهم فرحلوا خـــائبين خاسرين [1] .

ويعتبر فشل الحملة المشتركة على دمياط نقطة تحول في تـــاريخ الشرق الأدنى إذ لم يلبث صلاح الدين أن عمد إلـــى الـــهجوم علـــى الصليبيين في مواقعهم فأغار على الرملة وعســـقلان وغيرهـــا مـــن المدن الواقعة بأيدي الصليبيين .

---

(1) نفسه ص ٧٢ ، ولمزيد مـــن التفصيـــل انظـــر مفـــرج الكـــروب ج١ ص ١٧٩ ، والروضتين ج٢ ، ص ١٣٩ .

معركة حطين (١) .

تعد معركة حطين من أهم المعارك التى خاضها السلطان صلاح الدين ، وكانت مفتاح تحرير بيت المقدس ومقدمة له .

ومن هنا حظيت بتسجيل الشعراء والأدباء فضلاً عن المؤرخين .

وخلاصة هذه المعركة أنه بعد سبع عشرة سنة من القتال بين صلاح الدين والصليبيين أدرك صلاح الدين بثاقب نظره نذر المعركة الحاسمة والتى ستكون بداية النهاية لطرد هذا المستعمر الغاشم فأرسل إلى قادته فى مصر والشام والجزيرة يستنفر القادرين منهم على حمل السلاح .

مقدمات حطين :

فرغ صلاح الدين فى عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م من إحياء الجبهة الإسلامية المتحدة بعد أن دانت له الموصل بالطاعة ، وغدا نفوذه يمتد من النيل إلى الفرات ، الأمر الذى جعل الصليبيين فى فلسطين مطوقين من الشمال والجنوب ، وزاد من سوء أوضاعهم فى بيت

---

(١) من أشهر المصادر التى تناولت هذه الموقعة الروضتين ، مفرج الكروب ، النوادر السلطانية ، أما فى العصر الحديث فانظر ندوة ٨٠٠ عام (حطين صلاح الدين) ط دار الشروق ١٩٨٧م ، الموسوعة الفلسطينية ، مصر فى عصر الأيوبيين ، د . السيد الباز العرين .

المقدس ما حدث من قلاقل واضطراب نتيجة لوفاة ملكـــها بغدويــن الرابع مما أدى إلى سلسلة من المؤامرات الداخلية انتــهت بتنصيــب غى لوسينيان على عرش المملكة الصليبية ، وكان رجلاً ضعيفًا لـــم يستطع أن يحظى باحترام أمراء دولته وعلى رأسهم أرناط صـــاحب حصن الكرك .

وفى تلك المرحلة كانت هناك هدنة بين صلاح الدين والصليبيـــن مدتها أربع سنوات تبدأ من سنة ٥٨١هـ ، ولكن أرنـــاط بسياســته الخرقاء لم يشأ أن يترك الفرنجة فى فلسطين ينعمون بهذه الفرصــــة لتصفية خلافاتهم الداخلية ، وهجم على قافلة للمسلمين وأسر رجالـــها وفشلت المفاوضات بين صلاح الدين والملـــك لوســينيان لإطـــلاق سراح الأسرى غير أن أرناط رفض .

فما كان من صلاح الدين إلا أن قام بحركة تعبئة شاملة لقواتـــه فى سنة ٥٨٣هـ وهــاجم حصـــن الكــرك والشــوبك ، واصطــدم بالصليبيين عند صفورية وانتصر عليهم انتصاراً حاسمًا .

وعندئذ تبين للصليبيين مغبة جريمتهم وحـــاولوا إعـــادة تنظيـم قواتهم ، وهنا ظهرت براعة صلاح الدين فقـــرر ألا يتقـــدم نحوهـــم واختار أن يستدرجهم ليسيروا نحوه فيصلوا إليه منهكين مـــن طـــول الطريق وحرارة الجو وقلة الماء ، ولذلك بادر صلاح الدين بمهاجمـــة مدينة طبرية وإحراقها الأمر الذى استثارهم فزحفوا لتخليصــــها فـــى

ظروف قاسية ، وكان صلاح الدين ورجاله ينتظرونهم قرب طبرية مدخرين قواهم لساعة الفصل الحاسمة . فتقدم عند قرية حطين وهى قرية غنية المرعى وفيرة الماء . وبدأت المعركة فى يوم راكد الهواء شديد الحرارة بلغ فيه الفرنجة " سطح جبل طبرية " المشرف على سهل حطين ، وهى منطقة على شكل هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ٣٠٠م ، ولها قمتان أشبه بالقرنين ، مما جعل العرب يطلقون عليها اسم " قرون حطين " ، وقد حرص صلاح الدين على أن يقف رجاله بحيث يحولون بين الصليبيين والوصول إلى ماء طبرية فى وقت اشتد بهم العطش ، ثم أمر صلاح الدين بإشعال النار والأعشاب والأشواك التى تكسو الهضبة ، وكانت الريح على الصليبيين ، فحملت لهيب النار والدخان إليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال على قول ابن الأثير (١).

وعندما أشرقت شمس يوم السبت اكتشف الفرنجة أن صلاح الدين استغل ستار الليل ليضرب نطاقًا حولهم حتى أحاطت بهم قواته إحاطة الدائرة بقطرها ، وبذلك بدأ الهجوم الشامل على الصليبيين وهم فى أسوأ الظروف وانتهت المعركة بوقوع الجيش الصليبى

---

(١) الكامل ج١١ ص ٥٣٥.

بأكمله بين أسير وقتيل ، ولم يستطع النجاة من أمراء الصليبيين سوى قلة قليلة منها ريموند أمير طرابلس ، أما غـــى لوســينيان وأرنـــاط فسيقوا مع غيرهم إلى صلاح الدين فى مخيمه فأحسن استقبالهم . ثــم ذكر أرناط بجرائمه وقرعه بذنوبه وعدّ عليه غدراته ثم أطاح برأســه جزاءً وفاقًا لما ارتكبه من جرائم ، ووفاءً بنذره .

والحقيقة أن معركة حطين كانت بداية النهايــة لســقوط مملكــة الصليبيين التى استمرت زهاء تسعين عامًا . إذ نتـــج عنــها نقــص واضح فى الفرسان المحاربين ، ويذكر أبو شامة فى الدلالـــة علــى كثرة القتلى والأسرى بقوله : " فمن شاهد القتلى قـــال : مـــا هنـــاك أسير ، ومن عاين الأسرى قال : ما هناك قتيل " .

ثم أخذ صلاح الدين يجنى ثمار هذا النصر فســقطت الحصـــون والبلاد فى شهور ثلاثة ، وتوج ذلك باسترداد القدس (١).

وقد تبارى الشعراء فى وصف هذه المعركة وبيان نتائجها ومــن ذلك قول العماد

بفتوح عصرك يفخر الإسلام   وبنور نصرك تشرق الأيام
فتمل فتحك وافتح القدس الذى   بحصوله لفتوحك الإتمـــام

---

(١) الموسوعة الفلسطينية مادة حطين بتصرف . وانظر كذلــك بيــن العقيــدة والقيــادة لمحمود شيت خطاب ، وكذلك ٨٠٠ عام حطين صلاح الدين (ندوة) ط . دار الشروق .

استرداد القدس

لم ينقطع المسلمون عن مناوأة الصليبيين منذ احتل هؤلاء القدس وأخذوها من الأفضل عام ١٠٩٩ للميلاد . وكان أكثرهم اهتماماً بها السلطان نور الدين . الذى ما كاد يملك الشام (١١٥٤م) حتى راح يبث الأرصاد ؛ ويرسل الفدائيين إلى بيت المقدس ، ليجوسوا خلال الديار ، ويأتوه بالأخبار ، ليعرف كيف ومن أين يستطيع مهاجمتها وردها إلى حظيرة المسلمين ، وسار صلاح على نهجه .

فما كاد ينتهى صلاح الدين من معركة حطين ، تلك المعركة التى انتصر فيها على الصليبيين (فى ٢٥ ربيع الثانى ٥٨٣هـ — ١١٨٧م) ، حتى راح يفكر فى الاستيلاء على بيت المقدس ، وقد صار إليه من فوره ، يتبعه جيش مزيج من العرب والترك والكرد ، وعندما وصل إليها ، حاصرها أولاً من الناحية الغربية . ولكنه سرعان ما رأى أن تلك الناحية لا تصلح للهجوم ، فنقل جيشه إلى الناحية الشمالية وعسكر فى البطحاء التى تقوم عليها الأحياء المعروفة فى يومنا هذا بالمسكوبيه وباب العمود وباب الساهرة ، وقضى هناك عشرين يوماً قبل أن يتمكن من فتح المدينة ، قضاها فى تركيب آلات الحصار ، وفى تهيئة وسائل القتال ، وكانت قوة الدفاع داخل المدينة مؤلفة يومئذ من ستين ألف مقاتل ، وكانت محاطة من جهاتها الأربع بسور منيع .

وبعد أن أتم ترتيباته ، أصبح قادراً على اقتحام الأسوار ؛ أنـــذر السكان طالبًا إليهم الاستسلام . غير أن زعماءهم عرضوا عليه تسلم المدينة صلحا ، فتردد صلاح الدين في بادئ الأمـــر . ولكنـــه عـــاد فرضي ، ولا سيما عندما قيل له إنه إذا ما أصر على دخول المدينـــة عنوة فإن الصليبيين يعتزمون أن يقتلوا المسلمين من الأسرى الذيـــن كانوا في المدينة ، وعددهم خمسة آلاف ، أضف إلى ذلك أنـــهم (أي الصليبيين) سيقتلون نساءهم لئلا يقعن في أيدي المســـلمين وســـوف يهدمون الصخرة والأقصى .

* * *

وبعد أن استشار صلاح الدين قواده منح الصليبيين ما يطلبـــون . فأتاح لهم مغادرة المدينة لقاء فدية ، على أن تدفع هذه خلال أربعيـــن يومًا ، وأقام على أبواب المدينة أمناء ليجبوا الفدية فدفعها الصليبيـــون عشرة دنانير شامية عن كل رجل ، وخمسة عن كل امرأة ، ودينـــاراً واحدًا عن كل طفل ، وغادروا المدينة دون أن يصابوا بأذى . وعفـــا عن كثيرين مفتديًا هو وحده عشرة آلاف شخصًا ، وأخوه سيف الدين الملقب بالملك العادل سبع آلاف شخص .

وهكذا تم لصلاح الدين فتح بيت المقدس ، وتم ذلـــك فـــي يـــوم الجمعة الموافق ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـــ ـــ ٢ أكتوبر ١١٨٧م .

سماحة صلاح الدين

خشى الصليبيون أن يقابلهم صلاح الدين بمثل مـــا فعلـــوا يـــوم احتلوا المدينة ، إذ قتلوا يومئذ تسعين ألفًا مـــن المســـلمين . ولكـــن صلاح الدين أظهر من التسامح والعفو ما جعل المؤرخين يذكرونـــه بالثناء والتقدير [(١)].

بعد فتح القدس انتشر جنود صلاح الدين فى شـــوارع المدينـــة وأحيائها يحفظون الأمن والنظام ، فلم يقع فى المدينة حادث واحد من حوادث السرقة والنهب التى تلازم الفتح عـــادة ، وراحـــت الأعـــلام الإسلامية تخفق على الأسوار ، وبعد أن وزع الهبات والعطايا علـــى قواد جيشه وأمرائه . وانتهى من لقاء المهنئين ، شرع فـــى تنظيـــم الشئون . فذهب قبل كل شيء إلى مسجدى الصخـــرة والأقصـــى ، وأزال ما بها من آثار نصرانية ، ثم عمرها تعميرًا يتناسب والغايـــة التى أنشئا من أجلها . ونقل إلى المسجد الأقصى المنبر الذى كان فـــى حلب ، وكان قد صنع قبل ذلك بعشر سنين ، بأمر نور الدين .

وأمر صلاح الدين بإغلاق كنيسة القيامة ريثما ينتهى القتـــال ، ولما انتهى أمر بفتحها ، وفتح للمسيحيين مجال التعبد فيها بحريـــة . ومن الأعمال التى قام بها أنه أتى بعدد من القبائل العربيـــة ، كبنـــى

---

(١) وقد مر ذلك فى مبحث شهادات الغربيين .

حارث وبنى مرة وبنى سعد وبنى زيد والجرامنة ، فأقطعها بعض أجزاء المدينة ليستوطنوها . كما رتب الأعياد والمواسم المعروفة ، كموسم النبى موسى فى القدس ، والمواسم الأخرى فى المدن الفلسطينية الأخرى ، وإن قال آخرون : إن هذه المواسم من وضع الملك الظاهر بيبرس ، والوقت الذى اختير لإقامة هذه المواسم هو الوقت نفسه المخصص لعيد الفصح ، وذلك العيد الذى يفد فيه إلى القدس عدد كبير من المسيحيين ولا سيما الأوربيين ، كزائرين ، فخشى المسلمون أن ينقلب الزائرون إلى جند فى نهاية الأمر فيحتلوا المدينة . وغادر صلاح الدين القدس فى خمس بقين من شعبان ، ثم عاد فزارها فى السنة التالية (٥٨٤هـ ــ ١١٨٨م) .

* * *

مقارنة بين تسامح صلاح الدين وجفاء إخوان العقيدة :

أما عن علاقة الصليبيين ببعضهم ، فقد كانت على أسوأ حـــال . ومن الأمثلة على ذلك أنه عندما تمَّ النصر لصلاح الديـــن وارتـــدّت الحملة الصليبية الثالثة ، لم يجد الصليبيون المندحــرون غــير النبــذ والإساءة والتنكيل من أمـــراء الفرنـــج الذيـــن اســـتوطنوا أنطاكيـــة وطرابلس . بل إن هؤلاء الأمراء فرضوا عليهم الضرائـــب ونـــهبوا متاعهم ، ثم منعوهم من الدخول إلى مدنهم ، ويروى مؤرخو الغـــوب أن المهزومين من جنود الصليبيين فى الحملة الثالثة لم يلاقوا معاملـــة إنسانية رحيمة إلا ممن كانوا يعتبرونهم أعـــداء لـــهم مـــن العـــرب والمسلمين الذين وفَّروا لهم العطف والإيواء كلاجئيـــن ، كمـــا أمـــر صلاح الدين أن يُعاملوا بالحسنى ، وأن توزَّع عليهم الخيام والأغذيـــة دون ثمن إلى أن يتمكَّنوا من ركوب البحر والعودة إلى بلادهم .

وكانت هناك طائفة من اللاجئين أمر صلاح الدين بنقلهم جميعًـــا إلى الإسكندرية لتسهيل عودتهم إلى بلادهم على سفن جنـــوا وبـــيزا وفينيسيا ومارسيليا ، إلاَّ أنَّ قادة هذه السفن امتنعوا عن نقلهم معـــــهم إلى أوروبا دون أن يتقاضوا منهم أجور السفر قبل الرحيـل ودون أن يتزوَّد كل واحد منهم بزاد يكفيه طيلة أيام سفره . ولما طلب قادة هذه السفن من الحـــاكم العربـــى لمينـــاء الإســـكندرية أن يعيـــد إليـــهم أجهزة السفن التى أودعوها مخازن الميناء طبقًا لما كان متَّبَعًـــا فـــى

ذلك الوقت ، وكان قد تبيَّن للحاكم أن هذه السفن تمتنع عن نقل أولئك اللاجئين من جنود الصليبيين لعجزهم عن أداء نفقات السفر ، فدُهِشَ لتصرُّف تجار الغرب الذين لم يتحرَّجوا من ترك أبناء جنسهم ودينهم تحت رحمة الأقدار يعيشون على صدقات العرب ، مؤثرين على نقلهم فى سفنهم نقل السلع ومختلف البضائع ، ولم يقبل قادة السفن وساطة الحاكم العربى إعادة الصليبيين إلى بلادهم إلا بعد أن قامت السلطات العربية بتقديم جميع المؤن التى تكفيهم طوال أيام رحلتهم [(١)].

وقد أصرَّ الحاكم العربى بإلزام قادة السفن برعاية مَن حملتهم سفنهم من الصليبيين ، واشترطوا على أنفسهم فى وثيقة مكتوبة ألا ينزلوا أحدًا منهم إلا فى موانئ بلاده ، وأن يعتبروهم فى ظل الحماية الإسلامية حتى يبلغوا بر الأمان فى شواطئ فرنسا وإيطاليا .

يقول (شامب دور) : (هكذا كان سلوك المسلمين والعرب فى حربهم مع الصليبيين المنهزمين واللاجئين بعد اندحار حملتهم وإخفاقها .. وإنه لموقف كريم حقا وإنسانى إذا قورن بموقف بنى جنسهم الذين امتنعوا عن معاونتهم ما لم يتقاضوا الثمن نقدًا وسلفًا ..

---

(١) الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى حرب السويس ص ٥٠ إلى ٥٨ . انظر أيضًا : (بين العقيدة والعبادة) محمود شيت خطاب ٣٤٤ .

وهكذا كان موقف الشرق من الغرب فى ظلِّ صلاح الديـــن ، ذلـــك البطل الذى تعد سيرته من أعظم سير البطولة وأخلدها .

ويقول المؤرخ (سوبر هاييم) : " إنَّ صلاح الديـــن لـــم يكـــن متعصبًا ولم يكن ليحمل ضغينة أو بغضاء للصليبيين باعتبارهم بشـــرًا ولا للمسيحيين الخاضعين لحكمه ، لذلـــك لـــم يضـــرب الصليبييـــن كمسيحيين ، بل كان يضربهم كأعداء بادؤوا العرب العداء وجـــاؤوا ليضربوا الإسلام فى دياره " .

ويستطرد هذا المؤرخ متصديًا للجانب الإنسانى فى صلاح الدين فيقول : " إن صلاح الدين آثر ــ دائمًا ــ أن يكون حكمه قائمًا علـــى العدل واللّين والمحبة ، وإنه على الرغم من شجاعته الحربيـــة التـــى حققت له العديد من الانتصارات فى ميادين القتال ، كان يكره أن تقـــع عيناه على دم مراق ، وكان يحسّ الألم يحزُّ فى نفســـه لمـــا تجلبـــه الحروب من ويلات ولما يصيب المقاتلين فى معاركها . ولم يســـتخدم فى حكمه الحديد والنار والسم ، فظلَّ علـــى رأس الإســـلام حاميًـــا للمسلمين بغير ما عنف ولا هوى ، مستندًا فى كـــل تصرُّفاتـــه إلـــى مبادئ الشرف والمحبة ، تلك المبادئ التى استطاع بها أن يمكِّن مـــن سلطان العرب والمسلمين " (١).

---

(١) من الحروب الصليبية حتى حروب السويس ص ٥٥ وما بعدها . نقلا عن (بين العقيدة والقيادة) لمحمود شيت خطاب .

القدس فى الضمير الإسلامى

تحظى القدس فى الوجدان الإسلامى وفى الموروث الدينى بمكانة كبيرة لا يسبقها فى ذلك سوى الحرمين الشريفين المسجد الحرام والمسجد النبوى ومن هنا وصفت بأنها أولى القبلتين وثالث الحرمين .

فهى الأرض المباركة التى حوت رفات الأنبياء والشهداء وشهدت مسرى الرسول ﷺ ومعراجه .

فلا غرو أن يهتم بعمارتها الخلفاء والملوك على مدار التاريخ الإسلامى .

وأن يبثها العلماء والأدباء والصالحون لواعج شوقهم وهيامهم حتى ليقول القائل :

أهيم بقاع القدس ما هبت الصبًا

فتلك رباع الأنس فى زمن الصبّا

وما زلت فى شوق إليها مواصلا

سلامى على تلك المعاهد والربى (١)

---

(١) انظر معجم البلدان .

ومن هنا كان سقوطها بأيدى الصليبيين عـــام ١٠٩٩م كارثـــة ـــ كما هو الحال اليوم عقب سقوطها بأيدى الصهيونيـــة ١٩٦٧م ـــ مما جعل شاعرا كالأبيوردى يقول [١]

مزجنا دماء بالدموع السواجم

فلم يبق منا عرضة للمراجم

فهيا بنى الإسلام إن وراءكم

وقائع يلحقن الذرا بالمناسم [٢]

ومن هنا أيضًا كان فرح المسلمين عظيمًا بتحرير القـــدس على أيدى صلاح الدين ، فانطلق الشعراء والأدباء يحيون هذا النصر وصاحبه حتى غدا للقدس ديوان ينتشى بذكرها ويتيه . ومـــن هـــذه الأهازيج التى تغنى بها الشعراء :

---

(١) انظر القصيدة فى المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ١٠٨/٩ . والكامل لابـــن الأثـــير ٢٨١/١٠ والنجوم الزاهرة ١٥١/٥ .

(٢) المراجع : الكلام القبيح .

١ـ العماد الأصفهانى

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا

وأشرف من أضحى وأكرم من أمســـــى

وقيل لنا فى الأرض سبعة أبحر

ولسنا نرى إلا أنامله الخمســـــــــــا

فلا عدمت أيامنا منه مشرفا

ينير بما يولى ليالينا الدمســــــــــــا

جنودك أملاك السماء وظنهم

عداتك جن الأرض فى الفتك لا الإنســا

فلا يستحق القدس غيرك فى الورى

فأنت الذى من دونهم فتح القدســـــــــا

٢ـ محمد بن أسعد المعروف بـ (الجوانى المصرى) (١)

أترى مناما ما بعينى أبصر؟ القــــدس يفتح والفرنجة تكسر!!

وقمامة قمت من الرجس الذى بــزوالـــه وزوالها يتطهر

ومليكهم فى القيد مصفود ولم ير قبـل ذاك لـــهم مليك يؤسر

قد جاء نصر الله والفتح الذى وعد الرسول فسبحوا واستغفروا

---

(١) يبدأ الشاعر قصيدته وقد أخذه العجب واستولت عليه الدهشة فهو يساء نفسه هل الفتح حقيقة واقعة أو هو حلم رآه وسرعان ما تمالك أعصابه ، ويعود إليه يقينه . فقد تم الفتح وتحقق .

٣ـ شهاب الدين فتيان الشاغورى :

رب الملاحم لم يؤرخ مثلها العلماء
قـــدمًا فـــى قديم الأعصر

خلعت عليه خلعة الملك التى
زبدت بهــارًا بالطراز الأخضر

لم لم تدن شوس الملوك له وقد
ملك الســـواحل فى ثلاثة أشهر

واستنقذ البيت المقدس عنوة
مـــن كل ذى نجس بكل مطهر

وأريتهم لما التقى الجمعان بالـــ
بيت المقدس هول يوم المحشر

ورددت دين الله بعد قطوبه
بالمـــسجد الأقصى بوجه مسفر

وأعدت ما أبداه قبلك فاتحا
عمـــر فأنت شريكه فى المتجر

حتى جمعت لمعشر الإسلام بين
الصـــخرة العظمى وبين المعشر

٤ـ رشيد بن بدر النابلسى (١)

هذا الذى كانت الآمال تنتظر
فليـــوف لله أقوام بـــــما نذروا

---

(١) وفى هذه القصيدة يعبر عن نبضات القلوب وما كانت تؤمله من آمال ، والآن وقد تم الفتح قرت العيون واطمأنت الجنوب بعد طول انتظار (٩٠عامًا) .

بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت

فـــي سالف الدهر أخبار ولا سير

الآن قرّت جنوب فى مضاجعها

ونـــام من لم يزل حلفًا له السهر

يا بهجة القدس إذ أضحى به علم إلا

ســــلام من بعد طى وهو منتشر

" الله أكبر " صوت تقشعر له

شـــمَ الذرا وتكاد الأرض تنفطر

يا مالك الأرض مهدها فما أحد

ســــــواك من قائم للمهد ينتظر

ـ أبو الحسن على ابن محمد الساعاتى (١)

أعيا وقد عاينتم الآية العظمى

لأيـــــة حـــــال ندخر النثر والنظما ؟

وقد ساع فتح القدس فى كل منطق

وشـــاع إلــــى أن أسمع الأسل الصما

حبا (مكة) الحسنى وثنى بيثرب

وأطـــــــرب ذَيّاك الضريح وما ضمّا

---

(١) يتساءل الشاعر فى هذه الأبيات عن العجز الذى أصاب الألسن خاصة أن الأعين قد رأت الفتح المبين الذى سارت به الركبان ويتمنى أن ينهض عمر رضى الله عنه ليرى ما صنعه صلاح الدين . فكأنه لا يرى أن كل هذه القصائد التى قيلت فى الفتح غير كافية وأنه يأمل فى المزيد .

فليت فتى الخطاب شاهد فتحها

فيشـــــهد أن السيف من يوسف أصمى

وما كان إلا الداء أعيا دواؤه

وغير الحسام العضب لا يحسن الحسما

وأصبح ثغر الدين جذلان باسما

وألسنة الأغماد توسعه لثما

سلوا الساحل المخشى عن سطوته

فمـــا كان إلا ساحلا صادف اليما

٦ـ الحكم أبو الفضل الجلياني

فى باطن الغيب مالا تدرك الفكر

فـــذو البصيرة فى الأحداث يعتبر

مالى أرى ملك الإفرنج فى قفص

أيـــن القواضب والعسالة السمر ؟

والاسبتار إلى الداوية التأموا

كأنـــــهم سد يأجوج إذا اشتجروا

يا وقفة التل ما أبقيت من عجب

جحـــافل لم يفت فى جمعها بشر

ويا ضحى السبت ما للقوم قد سبتوا

تهودوا أم بكأس الطعن قد سكروا

حطوا بحطين ملكا كافيا عجبًا

فى ساعة زال ذاك الملك والقدر ؟

يمسى فرنجة من أقطارها وله

مع المـــــــجوس حروب قدمها سعر

وبعض أبنائه بالقدس منتدب

وبعضـــهم (رومة) الكبرى له وطر

براية تخرق الأرض الكبيرة فى

جمع تقول له الأجسام : لا وزر

٧ـ الحسن الجوينى (١)

جند السماء لهذا الملك أعوان

من شك فيهم فهذا الفتح برهان

هذى الفتوح فتوح الأنبياء ، وما

له سوى الشكر ، بالأفعال أثمان

تسعون عامًا بلاد الله تصرخ والإ

سلام أنصاره صم وعميان

فالآن لّبى (صلاح الدين) دعوتهم

بـأمر من هو للمعوان معوان

للناصر ادخرت هذى الفتوح ، وما

سمت لها همم الأملاك مُذ كانوا

لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد

تـنـــــــزلت فيه آيات وقرآن

---

(١) بين الشاعر أن هذا الفتح يشابه الفتوحات الإسلامية التى تمت فى عهد البنى ﷺ ، ولولا تأخر زمنه لنزلت فى الإشادة به آيات من القرآن الكريم . ثم بين ما أجزل لصلاح الدين من أجر وثواب .

وفاة صلاح الدين

وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال ودع بطلنا دنيانا فى صبيحة الأربعاء السابع والعشرين من شهر صفر عام ٥٨٩هـ ليصاب العالم الإسلامى بأسره بخطب جسيم عبر عنه أدباء العصر ورجالاته بما ينبئ عن فداحة المصاب وعظيم الرذية ومن العبارات الموحية بذلك قسم ابن شداد التالى : (وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس إنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم فكنت أحمل ذلك على ضرب التجوز والترخص إلى ذلك اليوم فإنى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالأنفس) (١) ، وهو ما يظهر أيضا فى قول ابن شداد : وكان يوما لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين (٢)

ومن التغييرات الدالة على عظم المصيبة التى حاقت بالأمة الإسلامية ، قول بعضهم .

وهو المعنى ذاته الذى عبر عنه بعض الأدباء فى قوله : (أفلت الشمس عند الصباح : وأغمد سيف الله الذى كان على أعدائه دائم

---

(١) النوادر السلطانية ٤١٠ .

(٢) نفسه .

التجريد وخفت الأرض من جبلها الذى كان يمنعها أن تميد وأصبح الإسلام وقد فقد ناصره فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد) (١).

وقد رثاه العماد بقصيدة تبلغ مائتا بيت واثنان فى كتابه البرق الشامى منها : (٢) .

شمل الهدى والملك عم شتاته
والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذى مذ لم يزل مخشية
مرجوة رهباته وهباته ؟
أين الذى كانت له طاعاتنا
مبذولة ولربه طاعاته ؟
بالله أين الناصر الملك الذى
لله خالصة صفت نياته ؟
أين الذى ما زال سلطانا لنا
يرجى نداه وتتقى سطواته ؟
أين الذى شرف الزمان بفضله
وسمت على الفضلاء ثاراته ؟

---

(١) الروضتين جـ٣ / ٣٧٠ .
(٢) المصدر نفسه .

أين الذى عنت الفرنج لبأسه

ذلا ، ومنها أدركت ماداته ؟

أغلال أعناق العدا أسيافه

أطواق أجياد الورى مناته

من للعلى ، من للذرى ، من للهدى ،

يحميه ؟ من للبأس من للنائل؟

طلب البقاء لملكه فى آجل

إذ لم يثق ببقاء ملك عاجل

بحر أعاد البر بحرا بره

وبسيفه فتحت بلاد الساحل

من كان أهل الحق فى أيامه

وبعزه يردون أهل الباطل

وفتوحه والقدس من أبكارها

أبقت له فضلا بغير مساجل

ما كنت استسقى لغيرك وابلا

ورأيت جودك مخجلا للوابل

فسقاك رضوان الإله لأننى

لا أرتضى سقيا الغمام الهاطل

الملاحق

١ ــ ملحــق بــالمدارس التــى أنشــأها صــلاح الديــن وأفراد أسرته .

٢ ــ ملحق ببشارة القضاء على الدولة الفاطمية .

٣ ــ ملحق بخطبة الجمعة فى يوم الفتح .

ملحـــــق

بالمدارس التى أنشئت فى العصر الأيوبى فى القاهرة والفسطاط (١)

مدارس القاهرة

المدرسـة	القائم بالمدرسة	تاريخ البناء	مكان المدرسة	المذهب	المصدر
السيوفية	صلاح الدين	٥٧٢هـ	من جملة دار الوزير المأمون البطائحى	الحنفى	المقريزى : الخطط ،ج٢، ص٣٦٥،٣٦٦. ابن تغرى بردى: النجوم،ج ٦، ص ٥٥.
المشهد الحسينى	صلاح الدين	---	بجوار المشهد الحسينى	---	المقريزى : الخطط ،ج١، ص٤٣٧،٤٣٨. ابن تغرى بردى: النجوم،ج ٦، ص ٥٥ أحمد فكرى : مساجد القاهرةج٢، ص٥١
الكاملية دار الحديث	الكامل	٦٢٢هـ	خط بين القصرين	دراسة الحديث	المقريزى : الخطط ،ج٢، ٣٧٥ ابن تغرى بردى: النجوم،ج٦ق١ص ٣٠٠ القلقشندى : صبح الأعشى،ج٣، ص ٣٦٣.
الصالحية	الصالح نجم الدين أيوب	٦٣٩هـ	خط بين القصرين	المذاهب الأربعة	المقريزى : الخطط ،ج٢، ص٣٧٤. النويرى : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص ٣٨١
القطبية	قطب الدين خسرو بن شجاع الهدبانى	٥٧٠هـ	خط سويقة الصاحب	الشافعى	المقريزى : الخطط ،ج٢، ص٣٦٥ .

(١) انظر طبقات العامة ــ شلبى إبراهيم ، ط الهيئة العامة للكتاب .

المدرســة	القائم بالمدرسة	تاريخ البناء	مكان المدرسة	المذهب	المصدر
الفاضلية	القاضي الفاضل	٥٨٠هـ	درب ملوخيا	الشافعي والمالكي	المقريزي : الخطط ،ج٢، ص٣٦٦،٣٦٧.
الأزكشية	سيف الدين ايازكوج الأسدي	٥٩٢هـ	سوق الخروقيين	الحنفي	المقريزي : الخطط ،ج١، ص ٣٦٧. السخاوي : تحفة الأحباب ، ص ٥٣.
الفخرية	فخر الدين عثمان بن قزل	٦٢٢هـ	فيما بين سويقة لصاحب ودرب العداس	---	المقريزي : الخطط ،ج٢، ٣٩٧.
السيفية	سيف الإسلام الملك المعز بن نجم الدين أيوب	فيما بين ٥٧٧هـ و٥٩٣هـ	فيما بين البندقانيين وخط الملحيين	---	المقريزي : الخطط ،ج٢، ص٣٦٨.
العاشورية	عاشوراء زوجة ايازكوج الأسدي	٦٠٥هـ	رحبة كوكاي في أول حارة زويلة	الشافعي والحنفي	المقريزي : الخطط ،ج٢، ص٣٩١ .
الصاحبية	الصاحب صفي الدين	مجهول	سويقة الصاحب	المالكي	المقريزي : الخطط ،ج٢، ص ٣٧٣.
الشريفية	الشريف فخر الدين إسماعيل بن ثعلب	٦١٢هـ	ادرب كركامة على رأس حارة الجودرية	الشافعي	المقريزي: الخطط ،ج٢، ص ٣٧٣.
الصيرمية	جمال الدين بن صيرم	قبل٦٣٦هـ	سويقة أمير الجيوش	---	المقريزي : الخطط ،ج٢، ص ٣٧٨.
المسرورية	مسرور الصفدي	٦١٠هـ	درب شمس الدولة	---	المقريزي : الخطط ، ج٢ ، ص٣٧٨.
القزنوية	حسام الدين قايماز النجمي	مجهول	سويقة أمير الجيوش	الحنفي	المقريزي : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩٠.
عز الدين عبد الوهاب	عز الدين عبد الوهاب	توفي قبل إتمامها ٥٨٦هـ	لم يجدد موقعها	---	عبد الغني محمود : التعليم في مصر ، ص ٧٤. Mackenzie:Ayyubid Cairo,p.p118-119

مدارس الفسطاط :

المدرســـة	القائم بالمدرسة	تاريخ البناء	مكان المدرسة	المذهب	المصدر
الناصرية ابن زين التجار	صلاح الدين	٥٦٦هـ	بجوار الجامع العتيق	الشافعي	المقريزى : الخطط ،ج٢، ص٣٦٣،٣٦٤. ابن واصل: مفرج الكروب،ج١، ص ١٩٧، ج٥،ص١٦٩. شاهنشاه بن أيوب: كتاب التاريخ:ص٣٩٣. ابن الجوزى:مرآة الزمان، ق١،ج٨،ص٣٨٣. ابن الأثير : الكامل ، ج١، ص٣٦٦.
القمحية	صلاح الدين	٥٦٦هـ	بجوار الجامع العتيق	المالكى	المقريزى : الخطط ،ج١، ص ٣٦٤ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١،ص١٩٨ النابلسى : الفيوم ، ص ٥٩-٦٠. القلقشندى : صبح الأعشى،ج٣، ص ٣٤٣.
الصلاحية الناصرية بالقرافة	الكامل	٥٧٣هـ	القرافة	الشافعى	المقريزى : الخطط ،ج٢،ص ٤٠. ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧ أبو شامة : الروضتين ،ج١،ق٢،ص ٦٨٨ ابن وصيف شاه: تاريخ أخبار الديار المصرية ، ص ٦٩ .
العادلية	العادل	مجهول	خط الساحل	المالكى	المقريزى: الخطط ،ج٢، ص٣٦٥

المدرسة	القائم بالمدرسة	تاريخ البناء	مكان المدرسة	المذهب	المصدر
منازل العز	تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب	٥٥٦هـ	كانت منازل العز من دور الخلفاءالفاطميين	الشافعى	المقريزى : اتعاظ الحنفاء ،ج٣، ص٣٢٠. القلقشندى : صبح الأعشى ،ج٣، ص٣٤٣
الفائزية	شرف الدين هبة الله بن صاعد بن وهيب	٦٣٦هـ	---	الشافعى	المقريزى: الخطط ،ج١، ص ٣٦٥ أحمد فكرى: مساجدالقاهرة،ج٢ص٥٢،٥٤
ابن الأرسوف	عبد الله بن الأرسوفى	٥٧٠هـ	البزازين بجوار خط النخالين	---	المقريزى: الخطط ،ج٢،ص٣٦٤
ابن رشيق	حجاج تكرور	٦٤٠هـ	خط حمام الريش	المالكى	المقريزى، الخطط ،ج٢، ص٣٦٥

ملحق ببشارة السلطان نور الدين إلى الخليفة العباسي بالقضاء على الفاطميين وهي من إنشاء العماد الأصفهاني [1]

الحمد لله معلي الحق ومعلنه . وموهي الباطل وموهنه ، ومولي النعم ومسديها ، ومعيد المنح ومبيدها . ومكرم أنصار الإيمان ومبين سبله . ومرغم أصحاب الطغيان ، ومهين أهله ، الذي نصر الهدى بإعلاء راياته، وقهر الضلال بصرف ملماته ، وكشف غياباته ، وجلى ظلمة البدعة ، بسنا السنة . وأزال بنور اليقين ، سنة [2]الدين ، والريب عن القلوب المستكنة . والذي اتبع النعمى ، وأحمد العقبى ، وقرن سعادة الأولى بخير الأخرى ، وختم لنا في حاضرنا بالحسنى . وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا .

نحمده حمد من توكل عليه فكفاه ، وفوض أمره إليه فأغناه واعترف بنعمه السابغة فزاده وحباه ، واستسعفه في أمانيه فأناله مراده ومناه .

ونسأله أن يصلي على محمد المصطفى وآله وصحبه ، ينابيع الكرم والنهى ، ومصابيح الشرف والحجى ، وأعضاد الخلق، وأشهاد الصدق ، وأمجاد الخلق ، وأجواد الورى .

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج٤ ص ١٧٤ وما بعدها .

(٢) المقصود بالسنة ما يسبق النعاس والمعنى هنا أثر الفكر الاسماعيلي في تغييب معاني الدين .

وبعد ، فإنا أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميــع البــلاد الإســلامية عامة ، إلى سائر الجزيرة والجبلية والفراتيـــة والشـــامية خاصـــة . مبشرة بفتح الفتوح ، والنصر الممنوح ، والسعد المشرق ، واليمـيـــن المتألق ، والصبح المسفر بعد الإظلام ، والنجح الميسر بعد المـــرام ، والنعمة التى يجب على أهل الإسلام القيام بشكرها . والمنحـــة التـــى يعجز عن عدمها . ولا تحصر فى حصرها ، ومـــا يقدرهـــا حـــق قدرها . والعقلية المخطوبة بأغلى المهور المطلوبة ، بشرح الصـــدور المعلنة ، لباس السرور المفضلة عصرنا على ماضيات العصـــور . بما فتح الله على أيدينا وتاجه ، وأوضـــح لنـــا منهاجـــه ، وأذكـــى سراجه . ويسر لنا بعد إعضال الداء واسقاه ، شفاء وعلاجه . وذلـــل صعابه ، وسهل طلابه ، وجلى ظلامه ، وأعـــلا علاتـــه ، وألـــف شتاته ، وثقف قناته ، وأعاض النعمى من البـــؤس . وأعـــاد الإمـــام بنوره ، طلعة بعد العبوس .

وهو ما اعتمدنا من إقامة الدعوة الهادية العباسية ، بجميع المـــدن والبلاد والأقطار والأمصـــــار ، المصريـــة والإســـكندرية ومصـــر والقاهرة ، وسائر الأطراف القاصية والدانية ، والبادية والحـــاضرة . وانتهت إلى القريب والبعيد ، وإلى قوص وأسوان أقصى الصعيـــد . ولم يبق بتلك البلاد منبر ، إلا وقد أقيمت عليـــه الخطبـــة ، لمولانـــا وسيدنا الإمام المستضئ بنور الله ، أمير المؤمنيـــن ـــ صلـــوات الله

عليه ـ حتى أنار منابر المنابر سماته الشريفة . وشرف خطباء تلك الخطبة بذكرها ، فى توغل ذروتها المنيعة . وتمهدت جوامع الجمع ، وتهدمت صوامع البدع ، واهتزت أعطاف العباد لبركتها ويمنها ، واعترت أطراف البلاد بنهجها وحسنها . وجلبت معالم العلم بالمدارس بعد الدرس ، وهبت أرواح الطمأنينة وأنفاس السكينة على الأرواح والنفوس . واعتذر الزمان من ذنوبه ، فقبلت أعذاره . واعتذر الدهر المائل عن قصده ، فحسنت آثاره . وصفت بمصر شرعة الشرع ، وقام عماده ، وانطفأ شرار الشر ، وكبت زناده ونظرت أحداقها بنور الهدى ، بعد الإغماض ، واعتاضت نواظرها السواد من البياض . ونضوت حدائقها بين الرياض ، واستيقظ حظها بعد الرقاد ، وجرى نجمها بعد الركود ، وفاض ماء السعادة بعد النضوب ، وطلعت شمسها المنيرة بعد الغروب ، وكسدت سوق الفسوق ، واقفر مأوى العقوق ، وراحت بضائع الرجاء ، بعرف العرف منازحة الأرجاء . واتسع بها محال السجود ، ومجالس الجود ، وخفقت فى أكتافها الرايات السود ، وصفا مما تكدر من غديرها ، وعذب آسنة من نميرها ، وتجلى ما عطل من منبرها وسريرها ، فهى العدالة معمورة مبتهجة بالفضل ، مسرورة مضيئة الليالى بالأيام المستضيئة ، مشرقة المطالع بسعود الدولة العباسية ،

ضاحكة السن السنا مفاخرها ، صادقة الظن فى آثار مآثرهـــا . لقـــد أحرزت من الفخر والمجد ، ما ستطيل به على العصور .

وهذا شرف لزماننا هذا وأهله ، يفتخر على الأزمنة التى مضـت من قبله ، وفضيلة خصنا الله بها دون سائر الأنام ، ومنقبة أهداها لنـا دون ملوك الإسلام ، ببركات اختصاصنا بطاعة الدار العزيز . فإننــا لا نزال نتقلد بجادها . ونمتطى جوادها ، ونستورى زنادها، ونسـتفتح بها مغالق المآرب ، ونستهل بسببها مصاعب المطالب . ولــم نــزل نتخذ طاعة الإمام إمامًا يقتدى بهداه . نهدى بهداه وجناه ، ونستمسـك بوثيق عراه . وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة ، وعلى افتتاحها موقوفة . وعزائمنا فى إقامة الدعوة الهادية بها ماضية . حتى ظفرنـا بها بعد يأس الملوك منها ، وقدرنا عليها ، وقــد عجــزوا عنــها ، وطالما مرت عليها الحقب الخوالى ، وأبت دونـــها الأيـــام والليـــالى وبقت مائتان وثمانون سنة ، ممنوة بدعوة المبطلين مملــوءة بحــزب الشياطين ، سابغة ظلالها للضلال ، مقفرة المحل إلا من المحـــال ، مفتقرة إلى نصرة من الله يملكها . ونظرة ستدركها ، رافعة يدها فـى اشكائها ، متظلمة إليه ، ليكفل بأعدائها . حتى أذن الله تعالى لغمتــها بالانفراج ولعلتها بالعلاج ، ولدولتها بالابتهاج ولمنجاتـــها بوضـــوح المنهاج ، ولمحنتها المتجددة على الأيام بالإبـــهاج . وســبب قصــد الفرنج لها، وتوجههم إليها ، طمعًا فى الاستيلاء عليها . وبلغ ذلك منا

أقصى المبالغ ، وكاد يفيض خطبه بالزلزال السابق ، امتعاضًا للدين أن يتجنب الكفر التوحيد لا أن تقرع الإشـراك مروتـه ، واجتمـع داءان : الكفر والبدعة ، وكلاهما شـديد الروعـة مديـد اللوعـة . فانهضنا إليها من عساكرنا المنصورة كل ناهض . وأنزلنا لانتـهاز الفرصة من كل رابض . وأذقنا الكفار حر البأس . وأصليناهم نـار المراس ، وفرقنا جموعهم . واجتثثنا أصولهم ، واهتصرنا فروعهم ، وأمناها من تعديهم ، وخلصناها من أيديهم ، وملكنا الله ملك البـلاد ، ومكن لنا فى الأرض ، وأقدرنا على ما كنا نؤمله فى إزالة الالحـاد . والرفض من إقامة الفرض . فبادرنا إلى تهذيب ساكنيها من عصـب الغواية . وكشفنا ما أذلهم بها من الغمة والغباية . وخفنا من مضـرة الإهمال ، ومعرة الاجهال ، وأشفقنا من عود الأمر خدعا ، ومسـهل الباطل مجتمعا . وتقدمنا إلى من استنباه أن يستفتح بـاب السـعادة ، ويستنجح ما لنا من الإرادة ، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنـالك ، ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد المهالك .

فالحمد لله على سبوغ هذه الموهبة ، وبلوغ النصرة المذهبـة ، والنعمة المهدية ، والمنحة المرتبة . وما خصنا به من كمال الفضيلـة والمنقبة .

ملحق بخطبة الجمعة فى يوم الفتح *

يقول العليمى [1]

ولما فتح السلطان القدس تطاول إلى الخطابة يوم الجمعـــة كــل واحد من العلماء الذين كانوا فى خدمته حاضرين ، وجهز كل واحــد منهم خطبة بليغة طمعًا فى أن يكون هو الذى يُعين لذلك ، والســلطان لا يعين الخطبة لأحد . فلما دخل يوم الجمعة رابع شــعبان واجتمــع الناس لصلاة الجمعة حتى امتلأ الجامع ، ونصبــت الأعــلام علــى المنبر ، وتكلم الناس فيمن يخطب والأمر مبهم حتى حان الــزوال ، وأذن مؤذن للجمعة ، فرسم السلطان وهو بقبة الصخرة للقاضى محى الدين محمد بن زكى الدين على القرشى أن يخطب ، وهى أول جمعة صليت بالقدس بعد الفتح وأعاره العماد الكاتب أهبة ســوداء وكــانت عنده من تشريف الخلافة لبسها فى الحال .

فلما رقى على المنبر استفتح بسورة الفاتحة وقرأها إلى آخرهــا ثم قال : ﴿ **فقطـــع دابــر القــوم الذيــن ظلمــوا والحمــد لله رب العالمين** ﴾ [2] .

---

* الغرض من ذكر الخطبة هنا هو التغلب على ما يعانيه الناس من إحباط ويأس إذ هم فى حاجة ما يعيد إليه الأمل .

(1) الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل . وانظر وفيات الأعيان ج٤ ٣٣٢ وما بعدها.

(2) الأنعام : ٤٥ .

ثم قرأ أول سورة الأنعام : ﴿ **الحمد لله الذى خلق السـموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون * هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون * وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون** ﴾ [١].

ثم قرأ من سورة الإسراء قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرًا** ﴾ [٢].

ثم قرأ من سورة الكهف : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيمًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا * ماكثين فيه أبدًا * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدًا * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا * فلعلك باخع نفسك على آثرهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا** ﴾ [٣].

(١) الأنعام : ١-٣ .
(٢) الإسراء ١١١ .
(٣) الكهف: ١-٦.

ثم قرأ من سورة النمل : ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ءآلله خير أمّا يشركون** ﴾ (١).

ثم قرأ من سورة سبأ : ﴿ **الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير** ﴾ (٢).

ثم قرأ من سورة فاطر : ﴿ **الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير * ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾ (٣).

ثم شرع فى الخطبة فقال : **الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الكفر بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره الذى قدر الأيام دولاً بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر ، فوق عباده لا يمانع ، والظاهر ، على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما شاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع ، أحمده على إظهاره وإظفاره ، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ،**

---

(١) النمل : ٥٩.

(٢) سبأ : ١.

(٣) فاطر : ١ .

وتطهيره لبيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، مجد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاده [1] **وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله رافع الشك ، وداحض الشرك ، ورافض الإفك ، الذى أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السماوات العلا : ﴿ عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى ﴾** [2]. وعلى خليفته أبى بكر الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعائر الصلبان وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، ذو النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان .

أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها فى

---

(١) وفى وفيات الأعيان ص ٢٣١/٤ أجهاره .

(٢) النجم : ١٤-١٧.

أيدى المشركين قريبًا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الـذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه بعـد أن امتـد عليها رواقه ، واستقر فيها رسمه ورفع قواعده بالتوحيد فإنـه بنـى عليه ، وشيد بنيانه بالتمجيد ، فإنه أسس على التقـوى مـن خلفـه ، ومن بين يديه ، فهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعـراج نبيكـم عليـه السلام ، وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام فهو مقـر الأنبياء ومقصد الأولياء ، ومدفن الرسل ، ومهبط الوحى ، ومـنزل ينزل به الأمر والنهى ، وهو أرض المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو فى الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين ، وهو المسـجد الأقصى الذى صلى فيه رسول الله عليه الصلاة والسـلام بالملائكـة المقربين ، وهو البلد الذى بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمتـه التـى ألقاها إلى مريم ، وروحه عيسى الذى كرمـه الله برسـالته وشـرفه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى : ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون** ﴾ [1] كذب العـادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيدًا : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه مـن إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سـبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون** ﴾ [2].

---

(١) النساء : ١٧٢ .

(٢) المؤمنون : ٩١-٩٢.

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعًا ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شئ قدير ﴾ (١).

وهو أولى القبلتين وثانى المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ولا تعتقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، فلولا أنكم ممن اختاره الله من عباده واصطفاكم من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مبار ، وطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية والعزمات الصديقية ، والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتحات العلوية ، جددتم للإسلام أيام القادسية والملاحم اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه محمد ﷺ أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء ، وتقبل منكسم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء ، فاقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله بواجب شكرها ، فله تعالى المنة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب

(١) المائدة : ١٧.

السماء ، وتبلجت بأنوار وجوده الظلمـــاء ، وابتـــهج بـــه **الملائكـــة** المقربون ، وقربه عيون الأنبياء والمرسلون ، فماذا عليكم من النعمـــة أن جعلكم الجيش الذى يفتح على يديه البيت المقدس فى آخر الزمـــان والجند الذى تقوم بسيوفهم التهانى بعد فترة من النبوة أعلام الإيمـــان ، فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثالـــه وأن تكـــون التـــهانى لأهـــل الخضراء أكثر من التهانى لأهل الغبراء . أليس هو البيت الذى ذكـــره الله فى كتابه ونص عليه فى محكم خطابه فقال تعالى : **﴿ ســـــبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الـــذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾**[1]. أليس هـــو البيت الذى عظمته الملل وأثنت عليه الرسل، وتليـــت فيـــه الكتـــب الأربعة المنزلة من الله عز وجل ! أليس هو البيت الذى أمســـك الله لأجله الشمس على يوشع أن تغرب مباعدين خطواتها لتيسير فتحـــه ويقرب ؟ أليس هو البيت الذى أمر الله عز وجل موســـى أن يـــأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان ، وغضـــب الله عليـــهم لأجلـــه ، فألقاهم فى التيه عقوبة للعصيـــان ؟ ؛ فـــاحمدوا الله الـــذى أمضـــى عزائمكم لما نكلت عليه إسرائيل وقد فضلت على العالمين ، ووفقكـــم لما أخذلت فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين ، وجمـــع لأجلـــه كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته (كان) (قد) ، عن (ســـوف)

---

(1) الإسراء : ١٠٣ .

و(حتى) فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنودًا لأهويتكم جنده وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما أهديتم لهذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتمجيد ، وما أمطتم عـــن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفـــاجر الخبيــث ، فالآن تستغفر لكم أملاك الســـماوات ، وتصلـــى عليكـم الصلـــوات المباركات ، فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هـــذه النعمة عندكم بتقوى الله التى من تمسك بها ســـلم ، ومـــن اعتصـــم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، ومواقعة الـــردى ، ورجع القهقرى والنكول عن العدل ، وخذوا فى انتـــهاز الفرصـــة ، وإزالة ما بقى من الغصة ، وجاهدوا فى الله حق جـــهاده ، وبيعـــوا عباد الله أنفسكم فى رضا عبادته ، إذ جعلكم مـــن خيـــار عبـــاده ، وإياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان فيخيـــل لكـــم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وخيولكم الجياد ، وبجلادكم فى مواطـــن الجلاد ، لا والله ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، فـــاحذروا عباد الله بعد أن شرفكم الله بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل وخصكـــم بنصره المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كبـــيرًا مـــن مناهيه ، وأن تأتوا عظيمًا من معاصيه : **﴿ولا تكونوا كالتى نقضــت**

غزلها من بعد قوة أنكاثا ﴾ [1]. و **﴿ الذى ءاتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾** [2].

والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم ، انصروا الله ينصركم ، احفظوا الله يحفظكم ، واذكروا الله يذكركم ، واشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدوا فى حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وطهروا بقية الأرض من هذه الأنجاس التى أغضبت الله ورسوله واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد نادت الأيام : يا للثارات الإسلامية ، والملة المحمدية ، الله أكبر فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، أذل الله من كفر ، واعلموا رحمكم الله أن هذه الفرصة فانتهزوها ، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهروها ، فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول وهو مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى قبالة الواحد منهم عشرون وقد قال الله تعالى : **﴿ إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾** [3].

---

(١) النحل : ٩٢ .

(٢) الأعراف: ١٧٥.

(٣) الأنفال : ٦٥،٦٦.

أعاننا الله وإياكم على إتباع أوامره ، والازدجـــار بزواجــره ، وأيدنا معاشر المسلمين بنصر من عنده : ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده** ﴾ [(١)].

إن أشرف مقال يقال فى مقام ، وأنفذ سهام تمــرق عـــن قســـى الكلام ، وأمضى قول تحلى به الأفهام ، كلام الواحد الفـــرد العزيـــز العلام ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتـــوا لعلكم ترحمون** ﴾ [(٢)].

" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " " بسم الله الرحمن الرحيم "

وقرأ أول سورة الحشر : ﴿ **سبح لله ما فى السماوات وما فـــى الأرض وهو العزيز الحكيم هو الذى أخرج الذين كفروا مـــن أهـــل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مـــا نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فـــى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنيـــن فـــاعتبروا يأولى الأبصار** ﴾ [(٣)].

ثم قال : آمركم وإياى عباد الله بما أمر الله به من حسن الطاعـــة فأطيعوه وأنهاكم وإياى عما نهى الله عنه من قبـــح المعصيـــة فـــلا

---

(١) آل عمران : ١٦٠ .

(٢)الأعراف : ٢٠٤.

(٣) الحشر : ١ـ٢ .

تعصوه ، أقول قولى هذا واستغفر الله العظيم لـــــى ولكــم ولجميـــع المسلمين فاستغفروه .

ثم خطب الخطبة الثانية على عادة الخطباء مقتصرة ، ثــم دعـــا للإمام الناصر خليفة العصر ثم قـــال : اللــهم وأدم ســـلطان عبـــدك الخاضع لمهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك سيفك القـــاطع وشهابك اللامع ، والمحامى عن دينك المدافع ، والذاب عن حرمـــك الممانع ، السيد الأجل ، الملك الناصر جامع كلمة الإيمـــان ، وقـــامع عبدة الصلبان صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإســـلام والمســـلمين ، ومطهر بيت المقدس من أسر المشركين ، أبى المظفر يوســـف بـــن أيوب محى دولة أمير المؤمنين ، اللهم عمر بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفى جزاءه ، واشـكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه ، اللهم أبـــق للإســـلام مهجتـــه ، ووف للإيمان حوزته وانشر فى المشارق والمغارب دعوته ، اللـــــهم كما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظنت الظنـــــون . وابتلـــى المؤمنون ، فافتح على يديه دانى الأرض وقاصيها وملكه صيـــاصى " الكفرة ونواصيها ، فلا تلقاه منهم كتيبه إلاّ مزقها ، ولا جماعـــة إلاّ فرقها ، ولا طائفة بعد طائفة إلاّ ألحقها بمن سبقها اللهم أشـــكر عـــن محمد ﷺ سعيه ، وأنفذ فى المشارق والمغارب أمره ونهيـــه ، اللـــهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها ، وأرجاء الممالك وأكنافها ، اللـــهم

محتويات الكتاب

الموضـــــــوع	الصفحة
على سبيل التقديم	٥
مقدمـــة..................	٧

الفصل الأول

صـــلاح الديـــن .. لمحات من الحياة والنشأة	٩

المبحث الأول

مصادر سيرة صلاح الدين...........	١١

المبحث الثانى

عصر صلاح الدين...............	١٥

المبحث الثالث

نشأة صلاح الدين وصفاته	٢٨

المبحث الرابع

صلاح الدين فى رؤى المؤرخين المسلمين ..	٣٨

الصفحة	المــوضــــــــوع
	المبحث الخامس
٤٣	شمائل صلاح الدين فى مرآة الشعراء . . . . .
	المبحث السادس
٤٨	صلاح الدين ومكانته فى الأدب الغربى. . . . .
	الفصل الثانى
٥٩	صور من مآثر صلاح الدين. . . . .
	المبحث الأول
٦١	صلاح الدين والعلم . . . .
	المبحث الثانى
٧٣	صلاح الدين والقضاء على الدولة الفاطمية . .
	المبحث الثالث
١٠١	صور من جهاد صلاح الدين ومعاركه . . . . .
١٢٧	الملاحــــق . . . .

الموضــــــوع	الصفحة
ملحق بالمدارس التى أنشــأها صــلاح الديــن وأفراد أسرته	١٢٩
ملحق ببشارة القضاء على الفاطميين	١٣٣
ملحق بخطبة الجمعة فى يوم الفتـــح	١٣٨

الثمن ٧٥ قرشا

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر